دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

المسيحي في المجتمع

الأب متى المسكين

اهداءات ٢٠٠٢

القمص/ متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

مقالات تصلح للخدام والشباب
المقالة الخامسة في :
العلاقات الروحية (١)

المسيحي في المجتمع

الأب متى المسكين

كتاب : المسيحي في المجتمع
المؤلف : الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: ١٩٦٨
الطبعة الثانية: ١٩٨٠
الطبعة الثالثة: ١٩٩١
مطبعة دير القديس أنبا مقار ـــ وادي النطرون
ص.ب ٢٧٨٠ القاهرة.

رقم الإيداع في دار الكتب المصرية: ٧٤٤٦/ ١٩٩١
رقم الإيداع الدولي: ISBN 977 — 00 — 2.31 — 1

المحتويات

الفصل الثاني :

مقدمة

● كان العالم فيما مضى لا يتغير عن شكله إلا مرة في كل قرن تقريباً، فكان كل أربعة أجيال معاً تتعاون لتحمل آثار هذا التغير، وكان الإنسان لا يكاد يشعر بالتغيير وإنما يسمع عنه. أما الآن فالعالم يُستهدف لتحولات هائلة شديدة الجرأة سريعة لا تتجاوز في انسلاخها الكلي أكثر من ربع قرن، فأصبح على كل جيل بمفرده أن يعاني عبء هذه التحولات كلها في فكره، ومزاجه، ووجدانه، وخبراته، حتى وفي أكله وشربه؛ ويرى بعينيه كيف تتداعى كل أسس الثقافة التي رسخت عليها حياته، وكيف تنهار المُثل العليا وتنهزم الأنظمة المستقرة في أعماق الشعور واللاشعور.

وقلَّ من المثقفين بل وحتى العلماء من يستطيع أن يلاحق هذه التحولات. فالمدة التي يقضيها المعلمون لتحويل الاختراعات والمستحدثات والنظريات الجديدة إلى علم يُدرَّس، أطول بكثير من المدة التي أصبح يستغرقها العلماء في الاختراعات والكشوف الجديدة المذهلة. وبهذا كُتب على الأجيال برمتها أن تظل تعاني التغيير دون اللحاق بفهمه.

● ومن غير المعقول أن نطالب الدين أو الحياة الروحية أن تجاري مثل هذه التحولات أو حتى تتوافق مع سرعتها، لأن طبيعة تقدم العلم غير طبيعة تقدم الدين، فالعلوم والثقافات **تتقدم عن طريق تحولات** جذرية تتم على أساس إحلال نظرية أكمل محل نظرية أضعف جرياً وراء حقيقة علمية تبدو كاملة ثم يظهر نقصها على طول المدى وإلى الأبد.

أما في الدين، فالتقدم الروحي يتم على أساس حقيقة إلهية أُعلنت مرة إعلاناً كاملاً: «قد أُكمل» (يو١٩: ٢٨)، وليس أمام الإنسان بعدئذ إلا **التعمق لبلوغ هذه الحقيقة** عَبْر أسرارها.

● لذلك، فالتجديد في العلم غير التجديد في الدين تماماً، **لأن التجديد في العلم يشمل نبذ النظريات العتيقة.** أما التجديد في الدين فهو سيظل يشمل **استيعاب وتعمق التجربة الروحية الأولى هي بعينها**، أي حقيقة التجسد والصلب والقيامة ويوم الخمسين، إلى أبد الآبدين.

● ولكن في نفس الوقت لا بد من تقابل يتم بين جري العلم وتعمق الدين. فالتحولات الجذرية التي يضطلع بها العلم في سرعته الهائلة سوف تستنزف جبروت العقل ليقف أخيراً عاجزاً عن الحركة، حينما يكتشف بآن واحد لانهائية الحقيقة ولانهائية نقص العقل البشري، ثم لانهائية الخسارة التي هو متورط فيها!! وفي مرارة الواقع وقلقه سيواجه نفسه وحينئذ يتطلع إلى الله في سموه... وإذ بنا مرة أخرى إزاء ذلك الرجل الأوروبي يظهر في الرؤيا لبولس ويقول له: «آعبر إلى مكدونية وأعنّا.» (أع١٦: ٩)
وعلينا منذ الآن يقع عبء هذا النداء...

□ □ □

موقف المسيحي من المجتمع، حسب متطلبات العصر، هو بالحقيقة موقف دقيق.
فلكي يؤدي المسيحي رسالته داخل المجتمع يلزمه أولاً أن يقبل هذا المجتمع بل يحبه، ويحبه بالرغم مما فيه من تيارات خطيرة وشر وفساد قد لا توافق الذوق ولا الضمير المسيحي... كما «أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد...» (يو٣: ١٦)

ثم يلزمه أن يكون قد استوعب المسيحية كخبرة إيمانية، لا كنظرية لاهوتية، ولا كدرس في مدارس الأحد، ولا كمهنة جاز امتحانها. وهذا يعني أن يكون مستعداً أن

يعطي تغييراً وتجديداً روحياً للمجتمع كما أخذه هو وكما عاشه لنفسه، على أساس وجود الله كفاعل حي، وعلى أساس وثيق من وصية الإنجيل وخبرة الآباء...

كذلك، فإن المسيحي لا يستطيع أن يؤدي رسالته في المجتمع إن هو نسي ما هو العالم اليوم، أو إن هو تصدى لتياراته دون خبرة روحية ونعمة وإلهام تغنيه عن خبرة تشخيص أمراض المجتمع على أساس متين من العلم، حقاً إنه غير مطلوب من المسيحي أن يكون دائما عالماً أو مثقفاً بالعلوم الدنيوية. ولكن المفروض أن لا يكون باغضاً للعلم أو مزدرياً بالثقافة، وهذا لا يكون بمجرد التظاهر، وإنما ينبع عن تجربة روحية ناجحة واستنارة. والإنسان الروحي الراسخ، مهما كان أمياً، لا يبغض الحقائق العلمية ولا يتضايق من الفلسفة ولا يستهين بالفنون والأدبيات وكافة الثقافات. لأن التجربة الروحية تسمو بكافة المعارف لتبلغ بها أقصى ما يمكن من الخير.

وصحيح أن المعرفة الروحية وحقائق الإيمان ومناهج اللاهوت لا تحتمل التطور كما يتطور العالم في علومه وثقافاته، ولكن منهج التلقين الروحي وتسليم الخبرات الإيمانية لا يمكن أن يتجاهل مستوى الجيل الثقافي، فقد تفتحت آذان العامة على أصوات الفلسفات النقدية وعلوم النفس وتحاليلها، فأصبح على من يريد أن يتفاعل مع هذا المجتمع روحياً، ليرفع عنه أوهام النظريات التي تغلغلت في تفكيره، أن يكون دارياً بطرائق تفكير الشباب ومنطقهم ليرد عنهم حيرتهم وقلقهم!

وليس من المفروض أن يكون الإنسان المسيحي دائماً في وضع المعلم أو القائد لكي يؤثر في المجتمع ويقوده. فقد يكفي أن يكون المسيحي منفتحاً للمجتمع منفعلاً به، على أساس روحي، بمعنى أن يكون إيجابياً لكل الظروف والملابسات والأشخاص، يستطيع أن ينتفع من الظروف المعاكسة ويتفاهم مع الأشخاص السلبيين. فهذا التفاعل الإيجابي كفيل أن يؤثر في المجتمع بالقدوة ربما أكثر مما يقدمه بالتعليم والقيادة المباشرة. ولكن لعل أهم ما يعوز الإنسان المسيحي في علاقاته بالمجتمع، هو قدرته المستمرة لتحويل خبرته مع

الآخرين وخبرة الآخرين معه إلى مفهوم روحي، بمعنى أن يكون ذا قلب مفتوح لله يتسمع إليه عن طريق الخبرات اليومية فيتقبّل منه الإلهام والتوجيه من صميم الحوادث العادية وغير العادية. هذا هو التحول من الحياة حسب الجسد إلى الحياة حسب الروح. فإذا لم يملك الإنسان هذه القدرة، فإنه يستنزف عمره بدون فائدة تُذكر، و يعسر عليه جداً أن ينقل شيئاً روحياً للآخرين، ولعل هذه النعمة هي أعمق أسرار الحياة.

القمص متى المسكين

الفصل الأول

في العلاقات العامة

التي تربط المسيحي كفرد وككنيسة مع العالم

نظرة الكنيسة نحو علاقتها بالعالم :

مرت المسيحية في عصورها الأولى ناظرة إلى الكنيسة في مجملها كرسالة من عالم آخر، رسالة غريبة ليس لها موضع على الأرض، وكان يُنظر إليها أنها عتيدة أن تُكمّل سريعاً وتنطلق من حيث أتت.

وكان المسيحي يعتبر ذاته أيضاً أنه غريب عن العالم، قد انفصل عنه، وكعابر سبيل فيه لا يريد أن يتعوق في سفره.

وقد صارت هذه النظرة ضمن الميراث الروحي الذي ورثناه في معرفتنا عن علاقتنا بالعالم كمسيحيين.

وهذه النظرة وإن كانت تستمد أصولها وأسبابها من الإنجيل، بل وإن كانت قد ثبت صحتها فعلاً لدى الذين طبقوها بحرفيتها فعبروا مسرعين وخلصوا وكسبوا الحياة الأبدية، إلا أنها **إذا أُخذت كتعليم مطلق بلا شروط، فإنها تسيء إلى الكنيسة وتسيء إلى العالم معاً.**

فالكنيسة بالحقيقة غريبة في تعليمها وأهدافها بل وغريبة في طبيعتها عن العالم، **ولكنها وُجدت ولا تزال موجودة من أجل العالم!** والكنيسة موجودة في العالم لتغيِّر العالم.

أما الاختلاف الجوهري القائم بين الكنيسة والعالم فهو أيضاً ضمن رسالة الكنيسة وعملها، لأنها مسئولة أن تجعل هذا الاختلاف لا يتعارض مع خلاص الناس.

وقد علمنا من الإنجيل أن «الله أحب العالم»، أحبه كما كان، وكما هو الآن تماماً ولا يزال يحبه أيضاً بالرغم مما فيه.

وواضح من مجيء المسيح أن الله وضع على الأرض بيده بل بدمه « **حجر أساس** » كريماً لبناء **ملكوت الله**. والكنيسة هي هذا « الحجر الأساس » ، وهو آخذ في النمو بصورة سرية كما تنمو البادرة تحت سطح الأرض أولاً لتظهر فجأة ، أو كما يختمر العجين كله بفعل الخميرة **غير المنظور**، أو كما تصطاد الشبكة السمك تحت سطح الماء. وهذا الملكوت السمائي الذي ينمو على الأرض بصورة سرية ، تصنعه الكنيسة وتبنيه كل يوم بحجارة حية خام تنحتها حسب مواصفات خاصة ، وهذه الحجارة هي الإنسان العادي ، بل هي الإنسان الخاطىء ، بل هي الفاجر والأثيم. فهذه هي الخامة الأولية الثمينة جداً التي يصنع الله منها ملكوته بواسطة الكنيسة.

أما المسيحي فهو ملح الأرض ، بمعنى أنه ضرورة مطلقة في العالم ، يحفظ العالم من الفساد ويعطيه طعمه الإلهي.

ولكن المسيحي بحد ذاته إذا حسبناه بدون العالم ، فهو لا يزيد عن كونه حفنة ملح في قرطاس مهمل.

والحقيقة أنه قد ثبت على ممر العصور حتى الآن ، من واقع الصراع الذي يعانيه الناس ومن واقع بؤس العالم وحاجته إلى من يرفعه باستمرار من الورطات التي يتردى فيها بسبب مجازفاته ، أن الكنيسة ليست رسالة غريبة عنه أبداً ، ولا المسيحي عابر سبيل فيه. فالكنيسة في العالم هي بمثابة الرئة التي يتنفس بها العالم من روح الله ، وهي ضرورة حيوية فيه ، و بدونها يختنق حتماً ويموت. ولكن الكنيسة أيضاً بدون العالم لا يمكن أن تقوم بعملها ، أو بالحري بدون العالم تفقد وجودها وتصبح بدون عمل.

والمسيحي كما قلنا هو الملح الذي يصلح العالم ، بقدوته وسيرته ومقاومته الإيجابية لعوامل الفساد التي تعمل في العالم بلا هوادة لإفساده. أما إن فسد الملح ذاته ، بمعنى أنه يخضع لروح الفساد الذي يعمل في العالم ، فإنه لا يعود يصلح لشيء إلا أن يُطرح خارجاً ويُداس من الناس.

أسباب فتور العلاقات التي تربط الكنيسة بالعالم:

هناك ثلاثة أدوار مرت فيها الكنيسة منذ العصر الرسولي حتى الآن، تسببت ضمناً في جعل الكنيسة تفرِّط في علاقاتها بالعالم، وتطرح عنها نير مسئوليتها الخطير الذي وضعه عليها المسيح: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مر١٦: ١٥)، أي مسئولية تهيئة ملكوت الله وتغيير روح العالم باستمرار لقبول استعلان هذا الملكوت يوماً فيوماً في صميم الحياة التي يحياها الإنسان، وقبول المسيح رباً وفادياً إعداداً لمجيئه.

وسنعرض هذه الأدوار الثلاثة بمنتهى الاختصار.

الدور الأول:

وهو الإحساس بقرب مجيء الرب واستعلان ملكوت الله سريعاً: «وكانوا يظنون أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال» (لو١٩: ١١). هذا الإحساس عاشته الكنيسة منذ عصر الرسل، وظلت تعانيه كثيراً. وقد كتب بولس الرسول رسالته الثانية إلى أهل تسالونيكي لكي يبعد عن فكرهم هذا الاعتقاد: «ثم نسألكم أيها الإخوة من جهة مجيء ربنا يسوع المسيح واجتماعنا إليه أن لا تتزعزعوا سريعاً عن ذهنكم ولا ترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منا أي أن يوم المسيح قد حضر» (٢تس ٢: ١و٢). وهذا الاعتقاد تسبب في إصابة الكنيسة بفتور من جهة مسئوليتها الأساسية المستمرة الطويلة الأمد من جهة خدمتها في العالم وتكميل عملها فيه من أجل ملكوت الله.

وتعليل هذا الشعور الدخيل هو شدة حرارة المؤمنين وتشوقهم إلى الانطلاق للوجود مع المسيح، الذي لما لم يجد له متنفساً عملياً من جهتهم بالانطلاق الحقيقي، انقلب في اللاشعور إلى ترجِّي مجيء الرب وانتظاره بقلق، مما جعلهم يعتقدون بضرورة استعلان

ملكوت الله في الحال؛ وذلك تعويضاً عن إخفاق تحقيق الحياة الكاملة مع المسيح على الأرض وتذوُّق ملكوت الله في صميم الحياة اليومية.

هذا الشعور الذي أصاب الكنيسة الأولى جعلها تنكمش وتنطوي على نفسها كجماعة منفصلة عن جسم العالم تتوقع خلاصاً سريعاً، حتى ولو كان فيه هلاك للعالم كله.

وظل هذا المزاج الحار القلق المتحيز ضد العالم على أشده حتى هدأ قليلاً، حينما بدأت الكنيسة تحس أن رسالتها مربوطة بالعالم بعامل الزمن وقد وُضع عليها أن تعبر الأزمنة.

ولكن هذا الشعور المنحرف لم يمنع طبعاً التهاب الذين حل عليهم الروح القدس من الانطلاق لتبشير العالم مدة جيلين كاملين نجحت فيهما البشارة في العالم نجاحاً منقطع النظير. إلا أن هذا تم أيضاً بسرعة وعجلة شديدة، تحت الإحساس أن الوقت مقصَّر والملكوت على الأبواب. ولكن سرعان ما أحست الكنيسة بعد ذلك أن خطة الله أطول بالأ وأطول أناة من تقدير البشر؛ فبدأت الكنيسة تفقد إحساسها بضرورة العجلة.

الدور الثاني:

وبمطلع القرن الثالث برز عنصر آخر جعل الكنيسة تدخل مرة أخرى في نفس هذا الشعور، ولكن بإحساس آخر ضد العالم وهو إحساس لا بالغربة فقط بل بالعداوة الشديدة، وذلك بسبب بدء الاضطهاد الذي نظمه العالم الوثني ضد الكنيسة ونفَّذه بمنتهى القسوة والإصرار والصبر.

هذا العداء السافر الذي واجهته الكنيسة من العالم الوثني بلغ من الشناعة إلى الدرجة التي جعلت الكنيسة تحدد في اللاشعور موضعها خارج العالم نهائياً، وجعل الإنسان المسيحي تحت إلحاح مستمر للخروج من هذا العالم كما من سجن أو فخ منصوب. وقد نشطت تبعاً لذلك حركة الاستشهاد الطوعية بدرجة فائقة للوصف التي ولو أنها خدمت الشهادة للمسيح والإنجيل بصورة ناجحة منقطعة النظير حتى تسببت في انهيار الوثنية، إلا

أنها تركت إحساساً عاماً في قلوب المؤمنين بفظاظة العالم وجور الحكومات، مما أسس روح عداوة و بغضة بين الكنيسة والعالم ظلت مترسبة في أعماق اللاشعور كميراث يتسلمه الخلف عن السلف من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا. و بسبب هذا الشعور قوي اعتقاد الكنيسة أنها رسالة غريبة عن العالم وغير محبوبة، مع أن مركز العداوة والاضطهاد والقتل لم يكن العالم بل الوثنية التي كانت غريبة عن العالم غربتها عن الكنيسة تماماً.

ولكن هذا الشعور بالعداوة والانفصال عن العالم زاد جداً من انكماش الكنيسة وجعلها تقصر أمانتها وحبها وعطفها على أولادها فقط، خلافاً للإنجيل، وظلت الكنيسة تروح وتجيء على الإنسان المجروح الساقط على الأرض الغارق في دمائه الذي هو العالم، وهي تجوز مقابله بروح الكاهن واللاوي المتعصب، و بروح الإنسان المتطهر الذي لا يريد أن يتنجس حتى يأكل الفصح!!

الدور الثالث:

ومع حركة الاضطهاد والاستشهاد، وفي اتجاه موازي لها تماماً ومتأثر بها نوعاً ما، قامت حركة أخرى يمكن أن نعتبرها احتجاجاً صارخاً ضد العالم وحكوماته ومظالمه إنما في مظهر سلمي ومقاومة سلبية من الدرجة الأولى. هذه هي حركة الرهبنة التي انطلق فيها الناس فرادى إلى الجبال والقفار والبراري يعيشون، بل بالحري يموتون عن العالم، في تبتل مطلق وعبادة صامته والتصاق بالله يفوق العقل.

وبهذا تكون الكنيسة قد أخذت أقصى مواقفها السلبية ضد العالم في هؤلاء الأشخاص الذي هجروا العالم نهائياً ونبذوه باعتباره موطن الخطيئة والفساد.

وإن كانت الحركة الرهبانية بحد ذاتها عملاً إيجابياً أفاد العالم جداً، ولا يزال، بل ربما يمكن أن يُحسب هذا العمل أقوى ما قدمته الكنيسة للعالم كصورة حية ناطقة للإنجيل وامتداد تاريخي حي للمسيح نفسه، ثم للرسل والشهداء؛ إلا أن الحركة الرهبانية بسبب أنها حُسبت هروباً من العالم وعزوفاً عنه وازدراءً به بصفته مصدراً للشر والهلاك، صارت

(الرهبنة) من ناحية أخرى طعنة شديدة في ظهر العالم أصابته بجرح بليغ ممثلاً في الأشخاص الذين لا يستطيعون اللحاق بالرهبنة ويريدون الخلاص وهم في العالم !!

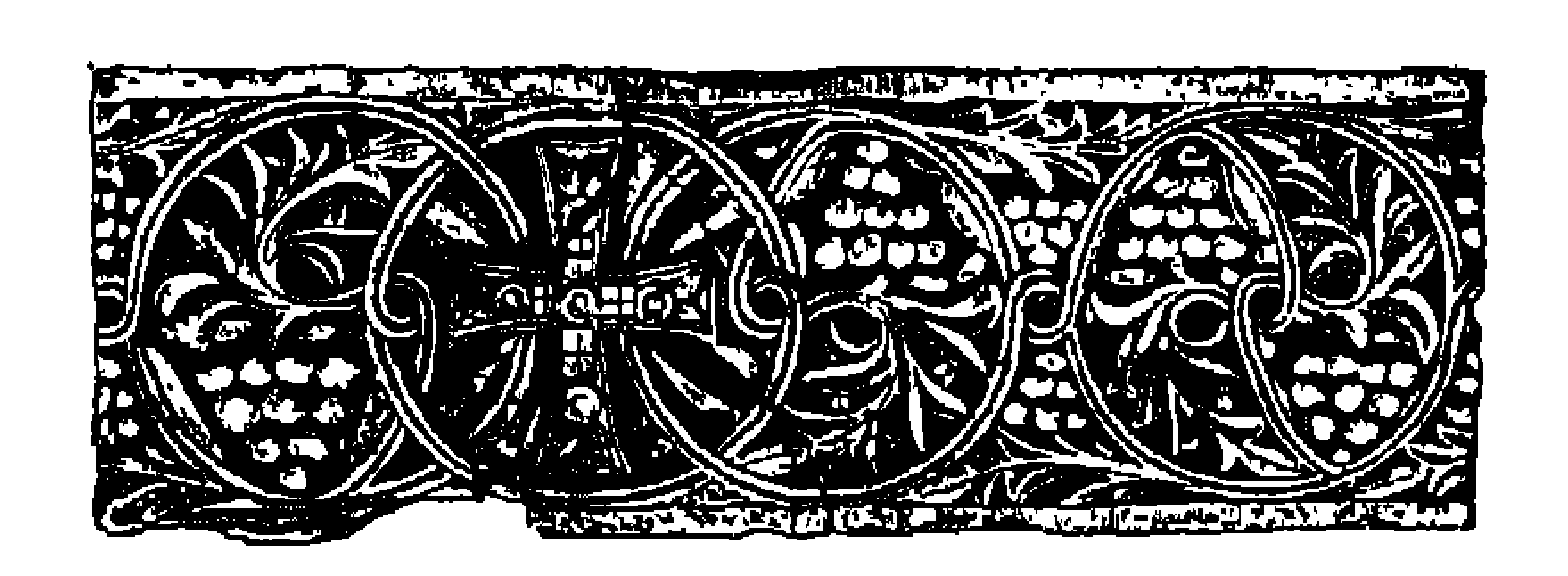
هذا بالإضافة إلى أن التعاليم التي صدرت عن الحياة الرهبانية من ضرورة التجرد والزهد وأعمال النسك والتأملات المتركزة في الأخرويات وانتهاء الدهر، جعلت صورة العالم مرة أخرى تذبل جداً وتضمحل في إحساس الإنسان العادي إلى الدرجة التي أصبح فيها يمكن اعتبار العالم أنه شيء فاسد لا ضرورة من وجوده ولا من استمراره. وهذا في الواقع هو الشعور المقابل للإحساس بسرعة مجيء الرب واستعلان ملكوته. وهذا سهّل على المؤمنين من قادة ورؤساء ورهبان الانفلات من الإحساس بضرورة حمل نير مسئولية الحاضر الزمني بالنسبة للكرازة والخدمة وتغيير العالم وتضميد جراحه وحمل الشعلة أمامه لإنارة طريقه الطويل الطويل جداً. لأن معظم الروحيين منذ بدء الرهبنة حتى اليوم يتحصنون سريعاً في التأمل في الأخرويات ويلوذون بالحياة التصوفية الرؤيوية عوض مواجهة الواقع المؤلم الذي يعيشه العالم.

مع أن جهاد الرهبان الأتقياء ونسك المتوحدين في عزلتهم الصامتة المطلقة هو محسوب أنه للعالم أكثر مما هو محسوب لهم!! إذاً، فالخطأ ليس في العزلة عن العالم، ولا في الهروب منه، ولا في النسك الفردي، ولكن الخطأ هو في فصل روح النسك والصلاة عن العالم وتجاهل النساك والمتوحدين لمحنة العالم، مما أساء إلى النسك والعبادة أكثر مما أساء إلى العالم. فالعالم في أشد الحاجة إلى صلوات المتوحدين ودموعهم، والخطاة والأشرار الذين في العالم أحوج إلى صوم الناسك ودموعه أكثر من نفسه!! وعلى كل حال فالمتوحد لن يكمل، حتى ولو انطلق إلى السماء راضياً عن نفسه كل الرضا، فهو سيبقى هناك ينتظر حتى يكمل العالم كله !!

هذه العوامل تآزرت معاً حتى فصلت الكنيسة عن العالم مدة طويلة من الزمان، ربما حتى القرن السادس عشر حينما بدأت حركة الإرساليات لخدمة العالم في كافة الأنحاء،

إنما للأسف تحت دوافع إقتصادية وسياسية ، ثم تلتها موجة أخرى أكثر أصالة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر. ولكن على وجه العموم ظلت الكنيسة تحمل في أعماقها روح حذر شديد تجاه العالم ما كان أسهله أن ينقلب إلى بغضة وعداوة بسبب ترسبات هذه العوامل الشديدة التي كانت باستمرار لا تزال حية وفعّالة في ذهن الكنيسة وضميرها.

أما مشيئة الله وقصده المبارك الذي أعلنه في الإنجيل تجاه خدمة العالم والكرازة له وإنارة الطريق أمامه ، فلا تزال معطلة تنتظر اليوم الذي تنفك فيه الكنيسة من قيودها الموروثة لتشهد للمسيح في كل مكان ، وتُصلب في كل مكان.



مشيئة الله وقصده المبارك تجاه العالم:

« هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية، لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليَخلُص به العالم. »
(يو٣: ١٦و١٧)

الله لم يترك العالم في عجزه وفقره وظلمته، والمسيح لما جاء لم يجلس في الهيكل، كإله، بل انطرح في صميم عجز العالم وفقره ومرضه، وشارك الناس ذلهم وانسحاقهم، وأجاز نفسه تحت ظلمة العالم وروحه الشرير وحقده وحسده وعداوته، حتى صلبوه في مهانة فاقت حدود التصور؛ وهو كان راضياً عن كل ذلك، لأنه أحب العالم وأراد أن يخلِّصه!! المسيح لم يستعفِ من العالم الشرير الظالم، ولم يقبل أن تُعمل له مِظلة على جبل التجلي، ولا قَبلَ أن يجعلوه ملكاً.

لذلك لما بدأ يعلِّم الناس كيف يخدمون العالم ويحبونه لم يعلِّمهم أن يخشوا شرَّه: « ها أنا أرسلكم مثل حملان بين ذئاب» (لو١٠: ٣)، ولم يحرضهم أن يخشوا تياراته خوفاً على نورهم من ريح الشر المتجمد فيه؛ بل دعا كل من يؤمن به أن يضع نفسه في مكان التيار على متن منارة في أعلى مكان من دنيا الشر والظلام، حتى تُرى أعماله وتُفحص بالنور و يراه الجميع ويمجدوا الله. وهذا كفيل أن يحول العالم كله، لو كان للمسيح من يكرز به هكذا في كل مكان!

لقد حدد المسيح دور الكنيسة وعملها في العالم كما يتحدد الملح للطعام، إذ يلزم أن يذوب فيه ويتلاشى عن شكله وكيانه ويترك طبيعته المطهرة تعمل وحدها. فالكنيسة تصير أداة تمليح حينما تكون مستعدة أن تنتشر في أرجاء العالم فاقدة لكل ميزة خصوصية، معطية ذاتها عطاءً كلياً حتى الموت.

وإن كان الله قد أرسل الروح القدس بمواهب متعددة للكنيسة التي سكبها عليها بغنى، فهذه المواهب ليست لخير المسيحيين ولا لكرامة الكنيسة إنما لخير العالم الموجوع. فالعالم مريض في مواضع كثيرة، وضربته لم تُعصب ولم تلين بزيت، وهي من أخمص القدم حتى هامة الرأس، لذلك هو محتاج لأنواع مواهب وتخصص في العلاج. من أجل هذا أرسل الله الروح القدس للكنيسة ليشفي العالم: «من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس.» (رؤ٢: ٧)

العالم بالحقيقة كان في حالة احتضار شديد لأن الشيطان كان قد استنزف دمه بعبادة الأوثان وفسادها، من أجل هذا أرسل الله روح استشهاد على الكنيسة، فاستطاعت الملائكة أن تجمع دم الشهداء وتنقله إلى جسم العالم الفاقد صوابه حتى استفاق من ضربته المميتة. ولكن لا يزال العالم تعاوده روح الوثنية، لذلك هو محتاج كل يوم في كل مكان إلى نفوس تبذل دمها لتوصل إليه روح الحياة التي للمسيح يسوع!

العالم لا تُسكَّن آلامه بالكلمات ولا تُستأصل أورامه بالعظات، العالم يحتاج دائماً إلى فدية، إلى نفوس تموت «كل يوم» لتحفظ شهادة الإنجيل حية حتى تستطيع أن تقبلها النفوس المريضة وتحيا بها. العالم يحتاج إلى نفوس تحترق وتُصلب في آلامها وضيقاتها، دون أن تنزل إلى مستوى الأنين، لتنير بتمسكها بالله طريق الإيمان أمام المتشككين والجاحدين واليائسين. العالم يحتاج إلى قديسين يتقدسون ويتطهرون لا من أجل أنفسهم بل من أجل الذين لا يؤمنون بالقداسة ولا بالطهارة: «لأجلهم أُقدِّس أنا ذاتي» (يو١٧: ١٩)!!

واضح أن المسيح مات ليعيش العالم، ولأن المسيح مات لأجل العالم قام وأقام العالم معه!!

والله وضع الكنيسة في العالم ووهبها روح القيامة، لتموت كل يوم عن العالم فتقوم ويقوم العالم بواسطتها!!

والكنيسة التي لا تشاء أن تموت، لا يمكن أن تقوم، وروح القيامة يفارقها، والعالم إذا مات يموت بذنبها!

المسيح لم يجعل العالم طريقاً مهملاً يطأه في عبوره إلى ملكوت أبيه، بل جعل نفسه الثمينة جداً سكّة يطأها العالم، ودمه المسفوك وجسده طريقاً حياً يعبر عليه الخاطىء والمذنب والأثيم حتى يصل إلى الآب. هكذا الكنيسة أيضاً جعلها الله طريقاً، لا بتعاليمها ولا بأقوالها ولا بصلواتها وحسب؛ ولكن قبل كل هذا بموتها عن العالم، بفقرها وذلها واحتمالها الصلب مراراً، وكل قديس وكل بار هو بالحقيقة جزء حي من الطريق الذي مهده المسيح بدمه وصليبه لكي يعبر الناس عليه وذلك بأن يُمات كل النهار لا من أجل نفسه بل من أجل العالم الذي أحبه الله.

لقد جعل الله للإنسان إمكانية الولادة الجديدة التي يتبعها عدم الموت، حتى يسهل على كل من يأخذها أن يموت مرات كثيرة عن الآخرين بدون خوف!! و بسبب القيامة أصبح لا خوف في الموت.

لقد جعل المسيح موته آية لحبه العظيم، وليس أمام أولاد الله جميعاً آية يظهرون بها حبهم الحقيقي نحو الرب يسوع إلا موتهم بفرح وسخاء من أجل العالم الذي أحبه يسوع: «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا...» (يو١٥: ١٣)

الكنيسة ليس لها عمل على الأرض إلا أن تحب المسيح، و بالتالي أن تموت عن الآخرين لكي تسعد كافة الناس بهذا الحب المحيي. فإذا سألت: ما هو العالم بالنسبة للمسيحي؟ أقول لك هو تماماً كاليهودي بالنسبة للسامري، أو بمعنى واضح هو كل إنسان في حاجة إلى محبتك حتى ولو كان لا يمُت إليك بصلة، حتى ولو كان عدوك.

والكنيسة بذلك مدعوة بكافة مواهبها وكافة أفرادها أن تحمل مسئولية ضعف العالم وهوانه وأوجاعه.

مفهوم الأرثوذكسية لرسالة الكنيسة في العالم:

كثيرون ينكرون على الأرثوذكسية أية رسالة عملية قامت بها للعالم.
ولكن الحقيقة أن رسالة الكنيسة الأرثوذكسية ليست ذات مظهر أو كيان بشري حتى يمكن وصفها بالأعمال والأقوال. فهي رسالة سرية غاية في الأهمية ولكنها غير منظورة، أو كما يقول بولس الرسول: «مستترة في المسيح.» (راجع كو٣: ٣)

فإن كانت الكاثوليكية تؤمن أن رسالتها هي تثقيف العالم في كافة الميادين العلمية والفنية والاجتماعية والدينية، وقد قامت فعلاً بنشر العلم والثقافة وأنشأت المؤسسات في كافة أنحاء العالم حتى غمرت جميع بلدان الأرض بنشاطها؛

وإن كانت البروتستانتية آمنت بأن رسالتها هي إصلاح المجتمع البشري ونشر معرفة الإنجيل خالصة حرة من كل تقليد، و بذلت في سبيل ذلك جهوداً عظيمة لا يمكن أن تنكر؛

فالأرثوذكسية التقليدية لا زالت تحتفظ بنظرتها اللاهوتية بالنسبة للاتصال بالعالم وخدمتها له، على أساس أن تحويل العالم وتجديده هو على نفس مستوى تحويل أي نفس بشرية وتجديدها، ولا يتم ذلك إلا باستعلان يسوع المسيح، أي لا بد أن يتم من خلال سر التجسد والفداء. ولا أحد يستطيع أن يوصل سر التجسد والفداء للعالم من خلال المنشآت الثقافية أو التعليمية، أو حتى من خلال التعليم ونشر الإنجيل، إذ لا بد من استعلان إيمان الكنيسة نفسها للعالم أولاً كنموذج حي لكي يعلن بواسطتها سر المسيح، وحينئذٍ يستطيع العالم كله أن يأخذ منها، حتى ولو لم تتحرك، حتى ولو لم تعمل!!

وقد نجحت الكنيسة الأرثوذكسية في تطبيق إيمانها هذا في العصور الأولى حتى القرن

الخامس والسادس، إذ قدمت للعالم بالفعل نماذج حية قديسة استُعلن فيها المسيح وارتاح فيها الروح القدس، لا كأفراد، ولا كجماعة صغيرة، بل ألوف وعشرات الألوف من نساك ومتوحدين وسواح و بطاركة لاهوتيين. هؤلاء لم يذهبوا هنا ولا هناك ولكن بلغ صيتهم وتأثيرهم كل الأقطار، ووصلت أخبارهم ونماذج سيرتهم إلى أقصى الأرض، وتأثر العالم كله بإيمانهم وحياتهم، ولا يزال متأثراً بهم حتى اليوم، فتم فيهم قول النبوة: «لا قول ولا كلام، الذين لم تُسمع أصواتهم، في كل الأرض خرج منطقهم وإلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم.» (مز١٨: ٣و٤ ـــ حسب الترجمة القبطية)

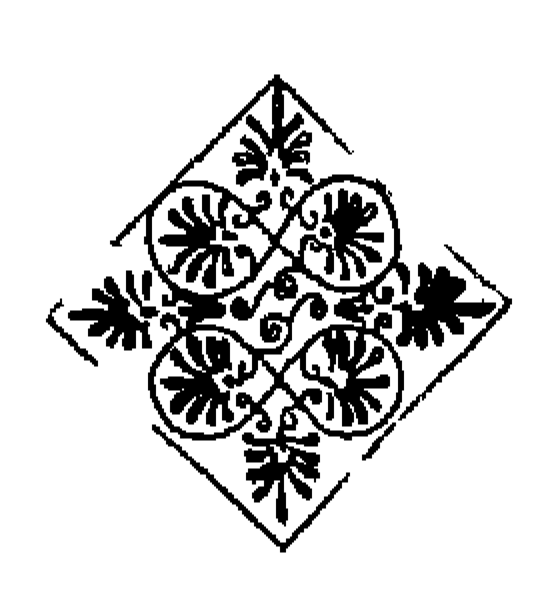
وهكذا يتضح أن مفهوم الأرثوذكسية عن رسالة الكنيسة في العالم يدور حول إيمانها هي أولاً، وتجديدها هي أولاً، واستعلان سر المسيح فيها ـــ حتى تستطيع أن تحول العالم المحيط بها بالقوة الروحية التي فيها، أي بالنعمة التي من فوق و بسر حضور المسيح في وسط الجماعة.

فكما تؤمن الكنيسة أن لا خلاص للفرد إلا بميلاده الجديد من فوق بواسطة الروح القدس، هكذا تؤمن أيضاً بالنسبة لتجديد الحياة الاجتماعية والعالم كله. لأن كل تجديد بالمفهوم الأرثوذكسي هو تحوُّل، وكل تحوُّل هو عمل سري مباشر من أعمال الله. وكل عمل أو جهد أو تعليم خارج عن هذا المفهوم الأرثوذكسي هو في الحقيقة بلا فائدة مهما كان عظيماً ومتسعاً وشاملاً. فالعالم كفيل أن يبتلع كل مجهود بشري خارج عن فعل النعمة!!

وواضح جداً أن اتجاه العمل في الكنيسة ينقسم بذلك إلى قسمين: قسم تأسيسي تعليمي يتجه اتجاهاً إنسانياً، وهذا يمثله الغرب؛ وقسم سري تجديدي يتجه اتجاهاً إلهياً، وهذا يمثله الشرق الأرثوذكسي. وبهذا تتميز الكنيسة الأرثوذكسية في علاقتها بالعالم عن كافة الكنائس الأخرى: فبينما الغرب على وجه العموم يستخدم طرقاً تعليمية و وعظية واجتماعية لتغيير العالم، نجد أن الأرثوذكسية تتمسك بطريق واحد لاهوتي صِرْف يقوم

على استعلان حياة المسيح من خلال حياة الكنيسة ـ أي الإنسان الكارز ـ وتتميم سر التحول والتجديد كفعل إلهي باعتبار أن طبيعة العالم التي فسدت لا يمكن أن يصلحها علم ولا معرفة ولا خدمة خلواً من النعمة!

ونحن لو تعمقنا الواقع لوجدنا أن الشر الذي في العالم أقوى عشرة أضعاف من إرادة الخير التي فينا. فإن لم تستعلن قوة المسيح فينا أولاً فأي اتصال بالعالم لن يجديه نفعاً، مهما كانت نياتنا الحسنة وجهودنا وأعمالنا الكثيرة. فاتصالنا بالمسيح وقبولنا سر القوة منه على تحويل أنفسنا وتجديدها يكون بحد ذاته هو مصدر القوة والإلهام للاتصال بالعالم وتجديده، على أن يكون العامل فينا هو المسيح، إذ يعلن بواسطتنا طبيعته للعالم ويكمل مشيئته المباركة للآخرين عن طريق ما يضعه في أفواهنا وما يلهمنا عمله من المحبة والبساطة والاتضاع.



مركز المسيح في المجتمع :

إن المحاولات الجبارة التي قام بها العلماء الاجتماعيون والتربويون والنفسانيون خلال القرنين التاسع عشر والعشرين لرفع قيمة الإنسان الذاتية وتسليحه بأخلاق اجتماعية، بدون المسيح، باءت بخسارة عظيمة لا يمكن أن تعوَّض.

وإن سر فساد المجتمعات في البلاد الغربية يرجع لسبب واحد لا غير، هو الاستغناء عن المسيح! فكل المكاسب الاجتماعية العظيمة التي فازبها العالم الغربي كميراث لنشاط الكنيسة في القرون السالفة وتقوى الآباء، سواء كانت هذه المكاسب مبادىء إيمانية أو أخلاقية أو أدبية، كلها قد بدأ ينخر فيها السوس، سوس الكبرياء العنصري والنفعية والإباحية الجنسية والحرية الإجرامية، حتى تشوه كل جمال أوروبا وأمريكا واختفى منها الإنسان التقي الذي يخاف الله.

وقد ثبت أن الإنسان بدون المسيح لا يستطيع أن يحتفظ بميراثه الأخلاقي، مهما كان متيناً راسخاً. فبدون المسيح قد ينجح الإنسان أن يعمل كل شيء ولكنه لن ينجح في حفظ طهارته وأمانته وحبه للآخرين بدون عيب حتى النهاية. وقد تنجح البيئات المتقدمة أن تخدم الفقراء والضعفاء والمرضى والمشوهين بدون أي وازع ديني، ولكن بدون المسيح لا يمكن أن يبذل الإنسان نفسه من أجل هؤلاء الفقراء والضعفاء والمرضى!

كل البيئات العصرية الآن نجحت في تحررها من الرجعية ومن الخرافات ومن العبودية الفكرية ومن الظلم، ولكنها بسبب تركها للمسيح تحولت الحرية لها إلى إباحية سافرة وإجرام وهبوط شنيع في المستوى الإنساني.

الحقيقة أن شخصية المسيح لا يمكن الاستغناء عنها. لذلك، كما أنه بمجرد تجاهل

المسيح انهارت المجتمعات الغربية وصارت في خطر عظيم من التفتت، كذلك نحن نؤمن أن مجرد استرداد الإحساس بشخصية المسيح في هذه المجتمعات كفيل أن يعيدها إلى أقوى وأكمل مما كانت!!

لأن الإحساس بشخصية المسيح مصدر إلهام عظيم للإنسان كفيل أن يرده إلى حالة إيمان وتوبة ورجاء يفوق بها كل الاحتمالات السلبية. والإنسان الذي يتمسك بالمسيح يستمد منه طاقة تمييز فائقة يستطيع أن يحكم بها على كل الأمور ولا يطغى عليه الشر قط.

فشخصية المسيح في المجتمع مصدر قوة وحيوية وتجمع، ترفع الإنسان فوق ذاته بدون جهد، فيرتفع الإنسان دون أن يشعر بارتفاعه لأنه لا يرتفع بذاته. لذلك، فعمل المسيح في المجتمع يختلف اختلافاً جوهرياً عن عمل الثقافات والعلم والمعرفة. لأنه إن كانت هذه يمكنها أن ترفع الإنسان بالمعرفة فوق ذاته، فهي لا تؤمِّنه ضد الكبرياء المحتمل من هذا النمو والارتفاع. أما المسيح فيرفع الإنسان إليه بالاتحاد الشخصي إلى مالانهاية.

المسيح قال: «أنا هو نور العالم» (يو٨: ١٢)، ولكن ــ للأسف ــ لم يزل إلى الآن لا يضيء بما فيه الكفاية بسبب رداءة الموصلين لهذا النور. فالإنسان بحد ذاته معتم، وإذا حاول أن يمتص نور المسيح لذاته فقط يزداد عتمة، لأنه يزداد أنانية وكبرياءً بمعرفته. أما الذين يعكسون نور المسيح بسهولة على الآخرين تجدهم يتوهجون بالنور كقمم الجبال في مطلع الشمس!

الإنسان الذي يتصل بالمسيح بقلبه ويستعبد مشيئة نفسه لخدمة محبته يزداد حرية، يزداد شجاعة، يزداد بذلاً، يزداد رجاءً يسند به الضعفاء واليائسين.

الإنسان الذي يستمد كلماته من فم المسيح، هو بمثابة نبي وسط الجماعة، أي جماعة سواء كانت متدينة أو غير متدينة، لأنه يلهمها قوة جديدة هي دائماً في أشد الحاجة إليها.

فالمجتمع البشري أينما كان تجده متحيراً قلقاً ساخطاً متبرماً على الحياة، خائفاً منزعجاً من المستقبل، ولكن الحقيقة المدهشة أن هذه كلها أوهام، مجرد أوهام. والعلة الوحيدة لسقوط هذه المجتمعات في هذه الدوامات هي هجرانها للمسيح ملك السلام!

والإنسان الذي تشعر الجماعة أنه محبوب لدى المسيح، تدفعه الجماعة التي يعيش معها لكي يتبوأ مكانه الأعلى في وسطها وتضطره أن يضع سراجه على المنارة، لماذا؟ لأنه يستطيع أن يدفىء قلوب الناس بحرارة المسيح وينير ظلمة القلوب بإشراق نور المسيح السري الذي يشع من وجهه وكلماته وحبه.

كذلك، إن من الأسباب الرئيسية التي تسببت في انهيار المجتمعات العصرية استغناءها عن حقيقة الحياة الأبدية، أي إهمالها لفكرة الحياة الأخرى. فكان من نتيجة ذلك أن أصيبت المجتمعات بنكوص شديد وهبوط خطير في تقييمها للمبادىء الأخلاقية والإنسانية، لأن الذي يشد المجتمعات إلى الأمام ويحفظ نموها ورقيها الأخلاقي هو إحساسها بالحياة الفضلى الآتية، مما يجعلها دائماً أبداً تُعِد ذاتها إعداداً داخلياً مستمراً لتناسب هذه الحياة الفضلى. إذاً، فالإيمان بملكوت الله والحياة الأبدية عنصر أساسي في تقدم المجتمعات وتطورها المستمر.

ومن هذا يتضح أن الرجاء المسيحي بالحياة الأبدية وبمجيء المسيح هو العصب الرئيسي المسئول عن المسير والنمو في الحياة الاجتماعية.

الحياة الاجتماعية، من وجهة نظر المسيح نفسه، إعداد دائم للمستقبل. لذلك، فمركز المسيح في المجتمع البشري ليس هو داخل دائرة المجتمع بل خارجها: «قد قام ليس هو ههنا... لماذا تطلبن الحي بين الأموات؟» (لو٢٤: ٦و٥)!!

فالمسيح ارتفع إلى فوق لكي يجذب إليه الجميع!!
ما معنى هذا؟

معناه أن عمل المسيح في المجتمع البشري ليس أن يصبح أكثر لياقة للحياة على الأرض أو أكثر تعاوناً أو ألفة أو سلاماً أو فرحاً أو راحة أو متعة. فهذه كلها يمكن أن تؤمّنها المجهودات البشرية والأموال.

ولكن عمل المسيح هو أن يجعل المجتمع البشري أكثر لياقة للحياة الأبدية، أي أكثر فهماً لله وأكثر حباً له وبذلاً من أجل محبته، وأكثر صبراً على كل ضيقات ومحن الأرض، وأكثر احتمالاً لمظالم الناس وشرورهم، وأكثر شكراً في كل الأحوال، وأكثر اتضاعاً بما يناله من خيرات ومواهب، وأكثر أمانة على القليل، وأكثر تجرداً من كل ما يعوق مسيره، وأكثر طهارة التي بدونها لا يُحسب له شيء.

وهذه هي الصفات الكفيلة بأن تطور المجتمع البشري تطوراً مستمراً أميناً لا نكسة له، فتجعله مؤهّلاً للاتحاد السري الذي يكمله الرب كل يوم بتجسده وفدائه شيئاً فشيئاً، إلى أن يكمل إخضاع كل نواميسه وتياراته وأفكاره الإيجابي منها والسلبي إخضاعاً مثمراً لله.

ثم يأتي السؤال:

هل للمسيح عمل في المجتمعات غير المسيحية والمجتمعات التي رفضته؟

والإجابة على هذا السؤال في غاية الأهمية لأنها تختص بطبيعة المسيح وطبيعة العالم.

أما من جهة طبيعة المسيح: فهو على حد قوله: «أنا هو نور العالم» (يو٩: ٥)، والنور لا يمكن أن يحجز نفسه، لأن جوهر طبيعة النور كما علمناه من الإنجيل هو أن «ينير كل إنسان آتياً إلى العالم» (يو١: ٩) بدون تفريق... كما أن المسيح: «جاء ليخلّص به العالم» (يو٣: ١٧)، وهذا هو جوهر عمله.

أي أن طبيعة المسيح وعمله غير محدودين. فالمسيح محب للإنسان وقد سمى نفسه عن

حق وفعل «ابن الإنسان»! وهو لا يزال يتمشى في الأرض كلها يقرع كل باب، ويقرعه إلى مالانهاية، ويستجيب لكل دعوة، «أم الله لليهود فقط؟ أليس للأمم أيضاً، بلى للأمم أيضاً» (رو٣: ٢٩). لهذا أرسل المسيح ليكون مركز تلاق بين «القريبين والبعيدين» كقول بولس الرسول (أف ٢: ١٣)، وليجمع الكل في واحد الذي هو نفسه!!

وأما من جهة طبيعة العالم: فلا فضل لإنسان على إنسان، وليس لأحد قط أن يقول عن نفسه أنه بار أو على آخر أنه شرير. فمن جهة العدل: «لأن الله أغلق على الجميع معاً في العصيان» (رو١١: ٣٢)، أما من جهة الرحمة فيقول الكتاب: «ليرحم الجميع»... وقد تيقن بطرس الرسول ــ بإعلان إلهي ــ «أن لا أقول عن إنسان ما إنه دنس أو نجس.» (أع ١٠: ٢٨)

فالمسيح جاء ليخلص العالم، وخلاص العالم لا يعتمد على استحقاق العالم ولكن على مشيئة المسيح الطيبة المقتدرة. والمسيح ــ كما رآه يعقوب بالنبوة ــ هو السلم العظيم الذي يربط الأرض بالسماء، والبشرية مدعوة كلها أن تصعد عليه. ففي المسيح ينجمع تاريخ تقدم كل الشعوب سواء التي انتمت إليه علانية أو التي رفضته، لأن نور المسيح يتغلغل العالم عنوة!!

وكل مجتمع بشري، مهما كان، هو بصورة ما واقف على إحدى درجات هذا السلم الخفي الذي يربط العالم بالله.

والحقيقة التي ينبغي أن يدركها كل مسيحي ويتيقن من جهتها، هي أنه مستحيل أن يبلغ أي مجتمع بشري في أية أمة أو أية كنيسة كماله ويكون لا يزال على الأرض شعب متخلف محروم ــ لأن البشرية مرتبطة بالمسيح كارتباط الكل بالواحد، فالسابق يتعوق بالضرورة بسبب المتخلف... حتى الشهداء لما صرخت أرواحهم من تحت مذبح الله في السماء ليقيم الله العدل ويدين الأرض قيل لهم أن يكفُّوا عن هذا التسرع غير

الرحيم: «فأُعطوا كل واحدٍ ثياباً بيضاً وقيل لهم أن يستريحوا زماناً يسيراً أيضاً حتى يكمل العبيد رفقاؤهم وإخوتهم أيضاً العتيدون أي يُقتلوا مثلهم.» (رؤ٦: ١١)

لذلك أعطانا الكتاب المقدس رجاءً لا يتزعزع أننا لا بد مكمِّلين خلاصنا بمشيئة القدوس الذي يطلب «خلاص الجميع»: «إذ سبق الله فنظر لنا شيئاً أفضل لكي لا يكملوا بدوننا.» (عب١١: ٤٠)

وإذ لنا هذا الرجاء والإيمان الحي بعمل المسيح السخي، علينا أن ننظر إلى كافة الناس البعيدين عن المسيح بهذا الرجاء والإيمان عينه، ولا نكف عن خدمتهم والصلاة عنهم بتوسل ومحبة، عالمين ومتيقنين أن مشيئة المسيح هي خلاصهم!!

فرسالة المسيح لن تنتهي حتى يكمل أفقر وأصغر أخ في البشرية، والله ضامن لحقوق الضعفاء والمذلين، ونحن عرفنا وتيقنَّا أن الوليمة السمائية لن تبدأ حتى يدعو كافة المنبوذين الذين خارج السياجات.

لأنه «أحبهم، أحبهم إلى المنتهى...» (يو١٣: ١)

«ولكن ليس المنتهى بعد...» (مت٢٤: ٦)

ثم يأتي السؤال:

هل المسيح لا يزال موجوداً وسط شر العالم؟

وهنا الإجابة على هذا السؤال ضرورة لاهوتية وضرورة كونية في آن واحد. فلأن المسيح إله، إذاً فهو حتماً محيط بالعالم كله في كل وقت. ولأنه قد تجسد وتبنى قضية الخطاة والأشرار، فهو بالضرورة يلازم كل مكان وكل تيار يسري فيه الشر ــ وإن كنا لا نرى بسبب عدم صبرنا وضعف رؤيتنا مقدار ما يحدثه المسيح من تغيير في العالم، إلا أننا متيقنون أنه يعمل بلا هوادة و بصبر يفوق عناد الإنسان، لتغيير قلب الإنسان وفكره، إن لم يكن عن طريق الإيمان المباشر فبواسطة توجيه تطورات الفكر نفسه، مهما كانت سلبية، والضغط عليها روحياً حتى تستسلم في النهاية وتصرخ «ربي وإلهي»

(يو۲۰: ۲۸)!! فالتطور الذي تتطوره المجتمعات، حتى ولو كان سلبياً، هو أملنا الوحيد الذي نلمح فيه خطة خلاص محكمة حينما ينتهي التطور إلى نقطة حرجة يقف فيها الإنسان أمام المسيح وجهاً لوجه!!

وهذا مما يجعلنا مستعدين بغيرة ونشاط أن نخدم وسط التيارات السلبية ونكافح دون أدنى يأس؛ بل إن الروح نفسه يحثنا لكي نتقبل هذه التيارات السلبية الشريرة والملحدة والفاسدة، بصفتها ميداناً يمكن أن يستخدمنا فيه الله، لكي يصنع بحياتنا وموتنا تغييراً فيها يتمشى مع الصليب ومشيئة الفداء، لأن المسيح متمركز وسط الأشرار والخطاة لأنهم موضوع محبته وعطفه.



ما هو عمل المسيحي داخل المجتمع:

الإنسان المسيحي بالنسبة للمجتمع يمكن توزيعه على ثلاث فئات:

في الأولى: المسيحي الذي لم يعِ بعد مسيحيته وحقوقها.

وفي الثانية: المسيحي الذي وعى مسيحيته وحقوقها ولم يعِ بعد واجباته بالنسبة للمجتمع.

وفي الثالثة: المسيحي الذي بلغته الرسالة كاملة بالنسبة للمجتمع.

والانتقال من فئة إلى فئة قد يطول زمانه بالنسبة لضعف التسليم الروحي.

وهذه الفئات أو المراحل لم تكن موجودة أصلاً في الكنيسة الأولى بهذا التحديد الزمني المتباعد، لأن المؤمنين كانوا بمجرد أن ينالوا العماد، كانوا يصبحون لائقين في الحال لحمل رسالة الكنيسة. أما الآن فالأمر ليس كذلك لعوامل أصابت الكنيسة وأصابت المؤمنين، وأخصها عدم البساطة وعدم الغيرة على خلاص نفوس الناس، ولم يعد التحول من الحياة حسب الجسد للحياة حسب الروح أمراً بسيطاً كالأول.

سمات الفئة الأولى:

وفيها لا يكون المسيحي قد وعى بعد مسيحيته ولا تكون تعاليم المسيح قد تحولت فيه بعد إلى فعل داخلي أي إلى حياة، ولا تكون الحرارة الإلهية قد دخلت قلبه التي هي علامة فاعلية الروح القدس القادرة على التحويل والتغيير والتجديد.

ويكون الإنسان في هذه لا يزال يعيش بأخلاقه وعاداته وميوله ومزاجه التي اكتسبها من الأسرة والبيئة، أي لم يتغير بعد. ولهذا يكون أقرب للتأثر بالبيئة وأخلاقها السائدة من تأثره بالإنجيل، لذلك يكون عرضة ليبتلعه التيار بكل سهولة مهما كان ذا اسم أو ذا

صيت أو ذا شكل، لأن قوة مقاومة الإغراءات تكون ضعيفة فيه للغاية. والإنسان في هذه المرحلة، ولو أنه يكون محسوباً عضواً في الكنيسة، إلا أنه يكون في الحقيقة غير مدرك بعد لمسئوليته الروحية، لا بالنسبة للمجتمع ولا بالنسبة للكنيسة ولا بالنسبة لنفسه.

فهو يسمع عن مسئولية الكنيسة لرسالة الإنجيل، ولكنه لا يحس بنصيبه في هذه المسئولية، كما أنه لا يحس بأي إلحاح باطني يجعله ينشغل بخلاص الناس الذين يهلكون حوله، ولا يشعر أيضاً أن خلاصه الشخصي مربوط بخلاص الآخرين. كما أن الإنسان في هذه المرحلة يمكنه أن يتحدث عما هو واجب على الكنيسة، ولكن يستثني نفسه بكل سهولة وبكل ارتياح. والسبب أنه لم يعد بعد عضواً حقيقياً في جسم المسيح، أي الكنيسة، حتى يحس بشركة الألم والفرح والمسئولية. فكلمات المسيح وجروحه وصليبه لا تزال غريبة عنه!!

آه ما أعظم الخسارة التي تخسرها الكنيسة بتسليم من هم في هذه المرحلة وظيفة تمثيل الكنيسة للإتصال بالعالم!!

سمات الفئة الثانية:

وفيها يكون المسيحي قد وعى مسيحيته وعياً داخلياً، وتحولت تعاليم المسيح فيه إلى حياة وإلى حرارة تظل تُكمّل تحويله داخلياً وتغير شكله يوماً بعد يوم. هنا يكون الإنسان في حالة يقظة وفعل، **ولكنه يكون غير مهيأ «للتفاعل» مع المجتمع الذي يعيش فيه.** أي أنه بالرغم من قدرته المدهشة في الذود عن نفسه ضد شرور الوسط وإغراءات انحلال البيئة، الأمور التي كان ينجذب إليها سابقاً، إلا أنه يقوى على إقناع الغير بضررها وفسادها، وهو بهذا يعتبر أنه ناجح في حربه السلبية داخل المجتمع **ليحمي نفسه** من التيارات، ولكنه لا يكون قد تسلح بعد بأسلحة الحرب الإيجابية التي بها يستطيع أن يوقف التيار ليحمي المجتمع نفسه من شروره.

وهو بسبب وقوفه هذا الموقف السلبي من المجتمع يكون عرضة دائماً للسخرية والنقد

الشديد لأنه لا يجاري التيار، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يصده أو يوقفه!!

الإنسان المسيحي في هذه المرحلة يبدأ يحس بواجبات الكنيسة ومسئوليتها الثقيلة والخطيرة ويئن جداً، ولكن أنين العاجز الذي إذ يرى الحرب قائمة والجهاد منصوباً والعدو تافهاً منتهى التفاهة، ولكن إذ يرى نفسه عارياً من كل سلاح يقف حزيناً باكياً، ولكن هذه الأحاسيس والمشاعر لا تمر فارغة؛ بل هي الوقود الناري الذي يضطرم في الداخل لتجديد الحياة كلها. فهذه المرحلة هي مرحلة التعبئة الداخلية التي تعمل فيها حرارة الروح القدس وأسلحة النعمة لتهذيب النفس وبنائها على الحب والبذل وقطع رُبُطها العتيقة التي كانت تشدها إلى الأرض.

وتظل هذه المرحلة رهينة بتأجج فعل الروح في القلب، إلى أن تتبدل الصورة العتيقة التي يصورها القلب لنفسه وللعالم، وتنمو صورة جديدة من وسط لهيب المحبة فيها يظهر الإنسان الجديد متهيئاً لحمل السلاح والشهادة حتى الموت، حيث يصبح نظر الإنسان مثبتاً إلى فوق لا ينثني يميناً أو يساراً.

هذه الفئة الغيورة هي التي يربيها الروح القدس لحساب الكنيسة لتحمل الشهادة والصليب.

سمات الفئة الثالثة:

وفيها يكون الإنسان قد نجح في حربه الداخلية مع نفسه، وأخضع ميوله وشهواته وآماله لمشيئة المسيح، وضبط ذاته ضبطاً روحياً أهّله أن يسلمها للرب تسليماً ناجحاً يزداد قوة وعمقاً كل يوم، وأصبح يحس أنه ليس حراً في تصرفاته لأن يد الرب تمسكه وتقوده. كما أنه لم يعد في نظر نفسه قادراً على شيء، ولكن يثق في الرب أنه قادر أن يصنع به كل شيء — لو أراد — وهو يتبع هذه الإرادة حتى الموت. وبهذا يتسلح الإنسان بأقوى سلاح في حربه الإيجابية تجاه العالم، وهو الاختفاء وراء الرب، فينجح دائماً وفي نفس الوقت ينجو من الغرور!!

وفي هذه المرحلة يحس الإنسان أنه أصبح جزءاً لا يتجزأ من الكنيسة ومن جسم المسيح المصلوب المتألم للعالم!! فهو يرى نفسه دائماً مسئولاً عن الكنيسة وعن ضعفها وعن رسالتها من أقصى الأرض إلى أقصاها، يئن تحت نيرها ويود لو يُزاد نصيبه الشخصي من آلامها وعارها، وذلك ليس طموحاً ولا اجتراءً ذاتياً لأنه يكون في الحقيقة متمنطقاً بأسرارها ويجري في دمه حب المسيح ووصاياه، وهو لا يهدأ ولا يستطيع أن يهدأ عن الشهادة للمسيح والإنجيل أينما وُجد وكيفما كان.

وفي هذه الفئة نجد الشباب الملتحف بالنعمة والحكمة، والشيوخ الذين لم يشيخوا أبداً المستنيرين بالحق والتجربة. هؤلاء هم الذين «أفرزهم الروح القدس للخدمة» (أنظر أع١٣: ٢)، إذ سبق فصوّرهم وهم في البطن للعمل.

هؤلاء يتميزون بإحساسهم المرهف للمسئولية. لا يهدأون ولا يجعلون الله يهدأ، بصراخهم من أجل الخدمة التي يحسونها بصفة مستمرة تجاه كل إنسان في كل مكان، معتبرين أن الشهادة للمسيح والإنجيل أولى من الأكل والراحة والنوم والصحة بل وأهم من السمعة والحياة كلها. وهم بهذا الإحساس يقدرون أن يشهدوا بقوة وبفرح وحرية واقتناع ويشرحون بقلبهم سبب الرجاء الذي فيهم، ويكون إحساسهم هذا الملتهب بالحب والفرح والبذل حتى الموت هو عينه القوة المحوّلة التي تغيّر قلوب الناس، وهو عينه البرهان المقنع على صدق رسالتهم، وهو أيضاً السند الذي يسند ويثبت المؤمنين الجدد إزاء كل التجارب التي تلازم المؤمنين في بدء حياتهم.

هذه الفئة هي قلب الكنيسة وهي الكتف المقدس المنحني بالفرح والتهليل تحت نير المسيح الحلو.

وعلى أساس الحالة الداخلية التي يكون فيها الإنسان المسيحي، تتحدد مسئوليته تجاه المجتمع وتتوقف النتائج:

فأصحاب الفئة الأولى:

يكون من الخطورة والمجازفة أن توضع عليهم أية مسئولية تجاه المجتمع، لأن النتائج معروفة ومفروغ من أمرها. وإن كانت هناك نصيحة مخلصة بالنسبة لهم، فهي رفض كل مسئولية تقدّم لهم، والاكتفاء بالتمسك بالإنجيل والصلاة بكل إصرار، حتى يشرق نور المسيح في قلوبهم، على أن التزامهم بطاعة مرشديهم وآبائهم هو بالنسبة لهم بمثابة صمام الأمان إلى أن يقبلوا من الله القدرة على الفهم والتمييز الداخلي الذي يساعدهم على النمو بسرعة.

أما أصحاب الفئة الثانية:

فجالهم في البيئة وإن كان لا يحتمل تبوء مراكز قيادية من أي نوع، إلا أنهم في أمان من جهة تعرفهم على روح البيئات التي يعيشون فيها بسبب النور الداخلي والحرارة التي تكون لهم بمثابة مقياس أمين ثابت يقيسون عليه كل ما يعرض عليهم من المشاكل والإغراءات والمبادىء المزيفة.

هذا الصف من المسيحيين لا يقف جامداً، لأن الروح القدس يدفعه دائماً للتحرك و يوسع أمامه دائرة خبراته بكل طريقة دون أن يشعر بالخطة الإلهية التي يدبرها الروح لملء حياته. لأن ظروفه وتحركاته قد تبدو أمامه أنها ليست وفق هواه، فقد يلقيه الروح في بيئات عنيفة في تياراتها ثم يعزله في بيئات هادئة ثم يلقيه وسط مشاكل أعلى من قامته، ولكن يسنده حتى يعبرها ويأخذ قوتها وهكذا، إلى أن يتم نضجه ويتفتح وعيه الخارجي لقبول مسئولية المجتمع الخارجي.

أما أصحاب الفئة الثالثة:

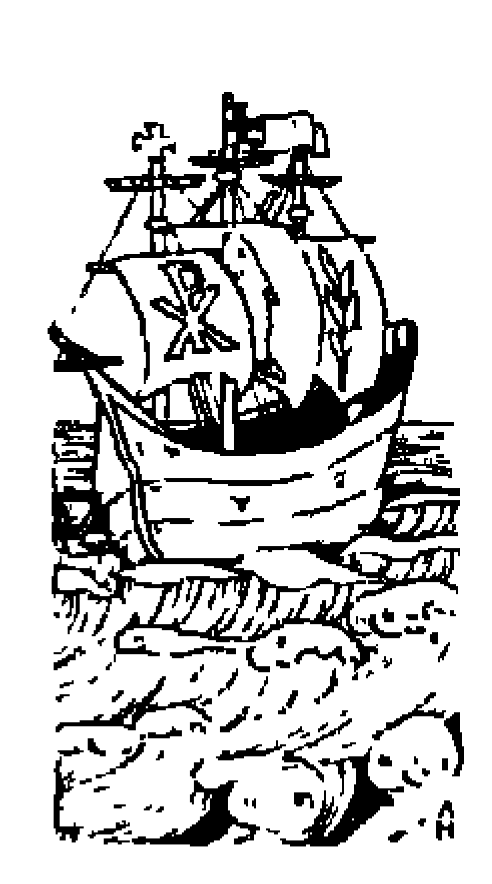
فهؤلاء هم الذين كملوا في مدرسة النعمة بتأديباتها وآلامها، ونالوا إجازة الصبر وتسليم الحياة، ولهم قدرة على المسير في الظلام كالنور، تجدهم إزاء المخاطر والتهديدات مملوئين رجاء لا يهدأون في سعيهم المقدس، لأن العمل عندهم مصدر راحة والألم مصدر إلهام.

وعلى كتف هؤلاء يصلح أن يوضع نير المسيح بكل ثقة واطمئنان. أما المسئولية التي يواجهها هذا المسيحي الناضج فهي تنحصر في هذه الأسس الثلاثة:

أولاً: الهدف الذي يسعى إليه المسيحي من عمله في المجتمع.

ثانياً: المصدر الذي يستمد منه المسيحي قوة العمل.

ثالثاً: الوسائل التي يستخدمها المسيحي في عمله.



الهدف الذي يسعى إليه المسيحي من عمله في المجتمع:

أولاً ـ تحديد الهدف:

حينما سلم المسيح الرسالة إلى تلاميذه لم يلجأ قط إلى التخصيص، لا بالنسبة إلى حقول العمل ولا بالنسبة لنوع العمل، فجعل الكل مسئولاً عن كل العالم، يتلمذونهم للمسيح بمقتضى كل تعليمه!! ولأن هذا يعتبر فوق الطاقة، لذلك قدم لهم نفسه كعامل يضمن التنفيذ.

ـ «فاذهبوا وتلمذوا **جميع الأمم**...» (مت٢٨: ١٩)، «وتكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة **وإلى أقصى الأرض**» (أع ١: ٨)؛

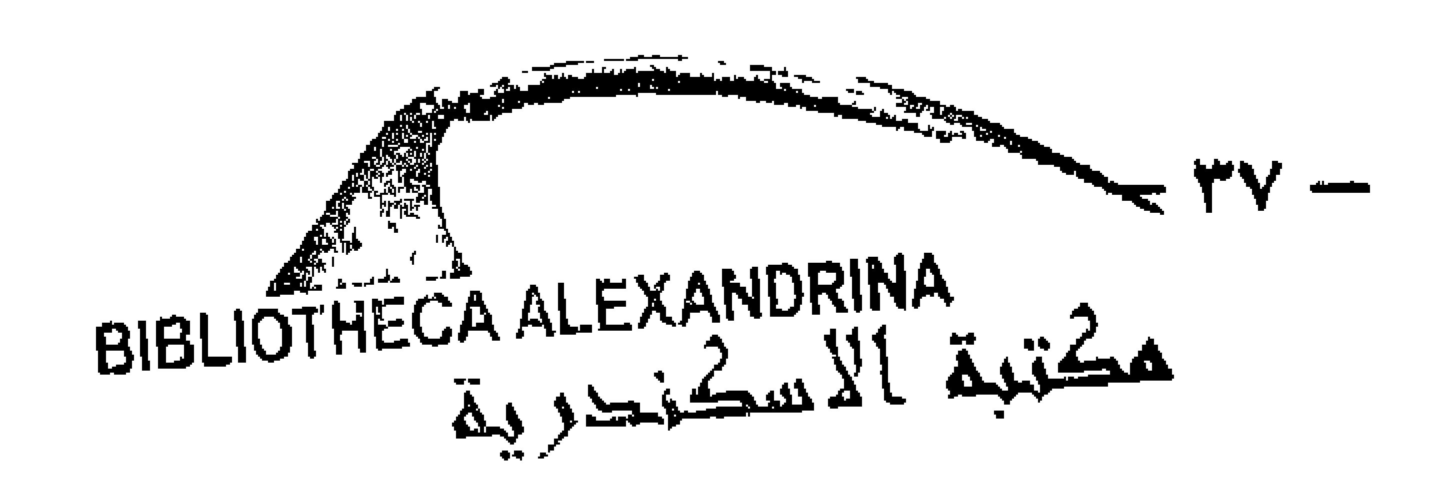
ـ «وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به»،

ـ «وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر.» (مت٢٨: ٢٠)

ومن هذه التحديدات الثلاثة يظهر عمومية الهدف وعمقه وتفوقه فوق الطاقة وطوله الزمني. كذلك يتضح من هذه التوصيات الثلاث الأخيرة التي أوصى بها المسيح تلاميذه أن الرسالة طويلة، طويلة جداً، وسوف تشمل الدهور كلها، وسوف تستنفذ كل طاقات البشرية. على أن ضمان تكميلها أكيد أكيد جداً، بسبب تدخل المسيح المباشر غير المنظور.

أما بخصوص مسئوليتنا تجاه هذه الرسالة الإلهية الطويلة الأمد، فلا يمكن أن نختصرها أو نحددها لأنفسنا؛ إذ يلزم أن تظل بروحها العمومية حتى لا تخرج عن مضمون التدبير الإلهي ومعونة المسيح.

ولكن الصفة العمومية التي نستطيع أن نخدم بها ونطبع بها هدفنا لا يمكن أن تشمل



العالم كله بهذا المفهوم المكاني، وإنما يمكن أن تكون عمومية بالنسبة لأنواع الناس والبيئات دون أن نميز أو نتحيز للحم والدم ولا بالنسبة للصداقات ولا بالنسبة للمنفعة أو المزاج أو الراحة أو العقيدة أو الوطن.

ولأول وهلة يبدو أن تعدد المجتمع واتساعه بهذه الصورة يُضعِف الهدف، إذ يضطره أن يكون محدوداً في أضيق الحدود حتى يوافق هذه العمومية المتسعة. ولكن الواقع هو العكس تماماً، لأن تعدد لون المجتمع بهذا الشمول والاتساع يرفع من قيمة الهدف ويجعله أعلى من أن ينحصر في إنسان أو في جماعة أو في شعب، وبهذا يجنبه التحيزات والنظرات الضيقة والتعصب. ونكون مطالَبين حينئذ أن نقدم المسيح للعالم كما قدم نفسه هو للعالم تماماً.

فاذا كان هدف المسيح في تقديم نفسه للعالم؟

هنا نجد أنفسنا ملزمين أن نوضح هدف الإنجيل كله. ولكن هذا ليس بالأمر الصعب، فالإنجيل ناطق بذاته وواضح جداً وسهل. ويمكن اختصار كافة تعاليم المسيح التي وردت فيه إلى ثلاثة اتجاهات ثابتة محددة:

الاتجاه الأول: يختص بعلاقة الإنسان بالله.

الاتجاه الثاني: يختص بعلاقة الإنسان مع نفسه.

الاتجاه الثالث: يختص بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

أما الاتجاه الأول: فنجد أن التعليم الرئيسي الذي يحدده ورد في حديث المسيح مع السامرية: «يا امرأة صدقيني أنه تأتي ساعةٌ لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب... الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأن الآب طالِبٌ مثل هؤلاء الساجدين له.» (يو٤: ٢١ — ٢٣)

هنا نجد الجزء الأول والأهم من هدف مجيء المسيح وتعليمه، وهو رفع الأوهام

المظلمة المخيمة على عقول البشر من جهة علاقتهم بالله وكيفية عبادتهم. فالمسيح هنا عامل منير فعال في العالم لتجديد روح البشرية وتقريبها إلى الله، وكلام الإنجيل قادر أن يعمل هذا.

أما الاتجاه الثاني: فنجد أن التعليم الرئيسي الذي يحدده و يضبطه ورد هكذا: «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وأهلك نفسه أو خسرها» (لو٩: ٢٥). وهناك يكمل المسيح الجزء الأول من هدف مجيئه وتعاليمه حيث جعل **النفس البشرية أهم من العالم كله ورفعها فوق كل ربح.** وكافة تعاليم المسيح تصلح لتشير إلى هذه الغاية وتوجه النفس إلى خطورة هلاكها، إن هي رفضت تعاليمه.

أما الاتجاه الثالث: فنجد أن التعليم الرئيسي الذي يحدده ويضبطه ورد في مَثَل السامري واليهودي، حيث ضمد السامري جراح اليهودي واعتنى به جداً حتى شُفي وتعافى!! بالرغم من أن اليهودي يبغضه ويحتقره بحكم الدين!! هكذا يظهر المسيح والإنجيل كله كمصدر مصالحة وحب وليس تحزباً وعداوة. وهنا يكمل المسيح الجزئين الأول والثاني من هدف مجيئه وتعاليمه حيث يرفع الحصار العنصري المظلم البغيض القائم على الدين والعقيدة والجنس، وذلك تمهيداً لتوحيد الإنسانية في إنسان واحد له قامة ملء المسيح.

وبهذا يكون قد تحدد أمامنا بوضوح هدف المسيحي الذي يرجوه من اتصاله بالعالم على أساس المسيح نفسه والإنجيل. ويمكن توضيحه في هذه الغايات الثلاث:

الغاية الأولى: رفع علاقة الناس بالله لتبلغ درجتها الروحانية الحقيقية.

الغاية الثانية: رفع علاقة الإنسان بنفسه إلى أن يستطيع أن يهتم بخلاص نفسه فوق كل اعتبار آخر مهما كان.

الغاية الثالثة: رفع علاقة الإنسان بأخيه الإنسان لتبلغ قيمتها الإلهية الأصيلة فوق كل اعتبارات الجنس والدين والوطن.

ولكن الذي يعمل في هذه الغايات الثلاث ويجعلها هدفاً فعالاً، هو المسيح. فهو الذي يجعل علاقة الإنسان بالله تقوم على أساس روحي، وهو الذي يرفع من قيمة خلاص النفس فوق العالم كله، وهو الذي يوحد الإنسان بالإنسان. فالمسيح هو العنصر الفعال وراء هدف العمل الذي يعمله المسيحي في العالم، وهذا واضح جداً من قول المسيح: «علموهم أن يحفظوا جيع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠). لأن تعليم العالم بكافة وصايا المسيح لا يجدي نفعاً بدون المسيح، لأن الوصية غير قادرة بذاتها أن تغيِّر العالم إذا لم يكن المسيح يعمل فيها ومعها. لذلك يستحيل على أي إنسان أو جماعة أو هيئة أن تنجح في تحويلها لأي مجتمع إلى حالة أفضل ويبقى هذا التحول مستمراً نامياً، إلا إذا كان داخلاً ضمن مشيئة الله وعمله ويكون المسيح «هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا.» (في ٢: ١٣)

فالمسيحي يؤمن إيماناً لا هوادة فيه أن تغيير المجتمع وتجديده إنما يتم على مستوى سري بتحولات صغيرة تتم في أركانه المتباعدة بواسطة جهود موضوعة تحت قيادة الرب، تعمل معاً كالخميرة لما تتوزع في العجين كله. على أن أي تحول في أبسط صورة من صوره إنما يتم كعمل من أعمال الله المستمدة من سر التجسد والفداء!

ثانياً: تثبيت الهدف:

حينما ينجح المسيحي في الوصول إلى هدفه في المجتمع على أساس هذه الغايات الثلاث، لا يكون ذلك كافياً لضمان بقاء النفس البشرية أو أية جماعات ثابتة ونامية في حدود هذا الهدف، إلا إذا انتقلت النفس أو الجماعة من حالة تأثر إلى حالة تأثير، أي يلزم لكي يكون إيمان الإنسان حياً أن يكون فعَّالاً باستمرار. فكل إنسان في المسيح يسوع مُطالب أن يكون حياً عاملاً كعضو في جسم الرب، وذلك يستلزم أن يكون متحداً بالكنيسة ملتصقاً بها.

لذلك فكل عمل يعمله المسيحي بالنسبة للأفراد والجماعات ولا ينتهي باتصالهم

بالكنيسة واتحادهم بها ومداومتهم على الصلاة فيها، حتى يحملوا هم أيضاً رسالتها يوماً من الأيام، فإن ذلك يعتبر عدم بلوغ الهدف. لأن الحياة مع المسيح لا تحتمل أن يبقى الإنسان منعزلاً عن باقي من يحيون مع المسيح: «فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد.» (١كو١٠: ١٧)

وهذا في الواقع تمهيد لعمل سري أعظم وهو قبول الإنسان للاتحاد القلبي بكافة الناس على وجه الأرض كلها ومحبتهم على أساس، ومن خلال، محبة المسيح للعالم كله. وهنا تسمو وتمتد مسئولية المسيحي من دائرة العمل في كنيسته إلى دائرة العمل لخير البشرية كلها، وحمل مسئولية احتياجات الشعوب والأمم المحرومة والمتألمة، وهذه غاية رسالة المسيح وغاية هدف الإنجيل!! وبهذا يبلغ الإنسان المسيحي الصورة المتكاملة التي رسمها المسيح فيه سواء منذ البدء على صورة الله، أو منذ الصليب على صورة المسيح نفسه المذبوح من أجل خلاص العالم!!

وهذه الصورة ليست وهمية أو فلسفية، فقد بلغها كثيرون جداً ممن قدموا حياتهم ذبيحة عن الشعوب في البلاد التي كرزوا فيها بالإنجيل. وهذه الصورة نحن مدعوون جميعاً لبلوغها، سواء كانت خدمتنا صغيرة داخل الأسرة أو كانت متسعة نوعاً داخل الكنيسة أو متسعة جداً في كافة البيئات الأخرى، لأن القلب المسيحي حينما يكون مهيأ لقبول ومحبة كل إنسان يصادفه يصبح في الحال مثل قلب المسيح و يكون له ــ فعلاً ــ قدرة المسيح لتغيير وتجديد قلوب الناس.

أي أنه على قدر اتساع الهدف ينبغي أن يتسع القلب!!
ولضمان تثبيت الهدف ونموه ينبغي أن نعمل له.

لذلك يلاحظ القارىء أننا تحاشينا كلمة «خادم» ووضعنا بدلها كلمة «المسيحي»، لأن المسيحي ينبغي أن يكون خادماً.

المصدر الذي يستمد منه المسيحي قوة العمل:

القوة التي يعمل بها المسيحي في المجتمع الذي يعيش فيه يستمدها من المصدر الآتى:
أولاً: من علاقته الشخصية بالمسيح.
ثانياً: من حضور المسيح.
ثالثاً: من فاعلية كلمة المسيح.

أولاً: علاقة الإنسان المسيحي بالمسيح كمصدر فعّال للتأثير في قلوب الناس:

المسيح الآن لا يستطيع أحد أن يراه أو يتحدث معه أو يلمس ثوبه أو يدهن رجليه بالطيب، ولكن ليس هذا معناه أنه غير موجود في العالم أو غير منظور كلية؛ فوعد المسيح قائم ونافذ: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠). لذلك أصبح الناس الذين لهم علاقة بالمسيح هم الوسيلة الوحيدة المنظورة لحضور المسيح، وحياتهم الملتهبة بمحبة المسيح وأمانتهم له وإخلاصهم في تسليم حياتهم لمشيئته بكل خضوع هي البرهان الوحيد المنظور والمحسوس لاستمرار عمل المسيح في العالم.

لذلك فقوة الشهادة للمسيح وللإنجيل لا يكمل تأثيرها في قلوب الناس، إلا إذا كان لها برهان عملي من حياة المتكلمين والعاملين. أي أن المحبة التي يعيش بها الإنسان المسيحي في علاقته بالمسيح، هي هي برهان إرساليته وهي هي قوة عمله.

والحديث عن محبة المسيح شيء يفوق الوصف والشرح، لأنها نار مضطرمة لا توصف، تشتعل في قلب الإنسان يوماً بعد يوم، ويزيد لهيبها بلا هوادة حتى تمحق الإنسان وتفنيه، فلا يتبقى منه إلا ما يتبقى من ذبيحة المحرقة من رماد عادم لشكل الذبيحة وطبيعتها الأولى، ولا يحمل إلا قوة الله على التطهير.

الإنسان الذي دخل مع الرب يسوع في عهد محبة لا يلبث إلا ويفقد كل صفاته الأولى وأخلاقه وميوله ومزاجه، وتصير خدمة المسيح والشهادة لأقواله ووصاياه هي كل انشغاله وهمه وآماله، ويصير قول بولس الرسول هو تفكيره الدائم: «ويل لي إن كنت لا أبشر.» (١ كو٩: ١٦)

والإنسان تحت اضطرام هذه المحبة، يكون مُساقاً يخدم هنا وهناك، كما يحمله روح الرب، دون أي اختيار أو مشيئة منه. ومن نار قلبه يستطيع دون إحساس منه أن يشعل كل فتيلة مدخنة تقترب منه.

هنا اضطرام المحبة في قلب الإنسان المسيحي، هي مصدر أساسي لفاعلية العمل والخدمة والتأثير، لأنها بمثابة توصيل حسي ملموس لحقيقة الكلام والشهادة.

وفقدان هذه المحبة المضطرمة، هي بمثابة فقدان القوة على تغيير الناس لأن التغيير يتم بقبول فعل المحبة.

أما العمل تحت تأثير هذه المحبة المضطرمة فلا يحتاج إلى مشجعات من أي نوع، بل بالحري يلازمه بذل و بساطة وتواضع شديد، وتنازل عن كل مجد وكرامة، وحمل ضعفات الآخرين بالصلاة والتشفع.

ولكن بمجرد أن تنحرف عين الإنسان ناحية المال كجزاء لتعبه ويطالب بالمزيد، يكون قد **سقط من المحبة** ودخل في مستوى الأجراء.

كذلك حينما يبدأ يتأثر بكرامة خدمته ووظيفته ويطالب بحقوقها، تكون علامة سرية أنه **فقد محبة المسيح** ورمى إكليل الشوك.

وحينما يبتدىء يستثقل عمله في محيط الفقراء والأميين والمرضى والمساكين وتزوغ عينه إلى الأوساط الغنية والبيئات المحترمة والجماعات المتعلمة، يكون ذلك برهاناً على **انطفاء لهب المحبة** من القلب وضياع دوافع الخدمة الأصيلة.

وحينما تبتدىء الحياة المدققة تبدو ثقيلة مع كثرة الأصوام والصلوات، ثم يبتدىء يتعثر في حياته كنموذج صالح وقدوة للإنجيل وحياة التقوى، وتستهويه مغريات الغنى والمفروشات والمتع ووسائل التسلية؛ يكون ذلك إيذاناً بغروب شمس المحبة بحرارتها وتسرُّب ظلمة ليل العالم و برودة الموت إليه، واستقالته من درجة المحبين والأخصاء ونزوله لدرجة العبيد.

ثانياً: حضور المسيح:

حضور المسيح أثناء العمل والكلام والإقناع مرتبط بعلاقة المسيح بالإنسان المتكلم.

هذا الحضور السري لا يحتاج إلى أي جهد بشري لتحقيقه وإنما يحتاج إلى إنسان يؤمن بهذا الحضور ويشخص إليه على الدوام، مترقباً عمله وتدخُّله وتأثيره في الناس.

أما الإيمان بحضور المسيح أثناء الشهادة له، فهو جزء لا يتجزأ من الإيمان بلاهوت المسيح وتجسده وفدائه.

أما ترقُّب عمله وتدخُّله وتأثيره في الناس، فهذا يتحقق بالفعل بسبب الإيمان باتضاع الرب وأمانة وعده: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت٢٨: ٢٠)، وكذلك: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل.» (يو٥: ١٧)

وكل ما يعجز عنه الإنسان في تفسيره وشرحه لحقائق الإنجيل يستطيع المسيح أن يكمله بطريقته الخاصة.

وكل ما يفشل فيه الإنسان يمضي بسببه حزيناً كئيباً، يعود المسيح من ورائه ويصححه بطريقته الخاصة أيضاً.

فالمسيح يعلم تماماً ضعف الإنسان. وهو لم يلقِ الثقل كله على من أرسلهم ليشهدوا له، فهو لا يزال يقود الكنيسة في صراعها المرير ضد الشيطان وجنوده. ولكن إذا فترَتْ

الكنيسة عن الصراخ والصلاة وطلب الرب، وتمادت في برودتها و بُعدِها عنه، ينشط الشيطان ويضرب ضرباته المرة التي تظل تعاني منها الكنيسة إلى أجيال.

حضور الرب كفيل أن يمحق الشيطان ويبدد خططه، ولكن الكنيسة مسئولة عن هذا الحضور: أولاً بحياتها الأمينة لوصاياه، وثانياً بصلواتها وصراخها ودموعها.

والذي يعمله الرب في لحظة حضوره لا يمكن أن توتّيه خطط البشر وأموال الدنيا وعبقرية الخدام في ألف سنة. وسيظل الإيمان بالرب وحضوره السلاح الوحيد لغلبة الشر في العالم.

«وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم: إيماننا.» (١يو٥: ٤)

ثالثاً: فاعلية كلمة المسيح:

كلمات المسيح قد تسمعها من إنسان فلا تتأثر بها إطلاقاً، وقد تسمعها من إنسان آخر فيتَّقد قلبك بالنار وتحس بأن الكلمة نفذت إلى أعماق نفسك وانفعل بها عقلك وقلبك وحتى جسدك.

وما ذلك إلا لأن كلام المسيح روح وحياة، ولا يمكن أن ينتقل إليك الروح من خلال إنسان ليس فيه هذا الروح وهذه الحياة. فلكي ينطق الإنسان بكلمات المسيح المملوءة روحاً وحياة، ينبغي أن تكون هذه الكلمات قد سكنت أولاً داخل قلبه وأحبها جداً وعاش بها وعاش عليها.

وكلمة المسيح حينما تصدر عن قلب يحبها ويؤمن بها يكون لها كل قوتها وفاعليتها الذاتية، أما إذا صدرت عن قلب لا يعيش بها وغير منشغل بها فهي لا تكون بكل قوتها وفاعليتها.

وهذا لأن قلب الإنسان بالنسبة لكلمة الله هو ككشاف النور الذي يسلط الشعاع على جوهرة من الماس الثمين في الظلام، فإذا كان القلب ضعيف النور استحال عرض

جمال الجوهرة. ونور القلب هو هو حب المسيح الفعّال الملتهب والمقتدر في كشف كلمات الحبيب.

ولكن كلمات المسيح لها قوة وفاعلية أيضاً بحد ذاتها، حينما يقرأها الإنسان بنفسه أو يسمعها من فم ينطقها بوقار وأمانة، لأنها قادرة بما فيها من حق أن تحاكم الضمير وتؤنب وتوبخ.

والإنسان الذي يستخدم الكلمة كمصدر يستمد منه قوة على تغيير قلوب الناس، يلزمه أن يعرف أنه ليس بمهارة البحث الكثير والقراءة والتبويب يستطيع أن يبلغ إلى هدفه في تجديد حياة الناس. ولكن سر قوة الكلمة يكمن في احترامها وحبها والخضوع لها والمعيشة المدققة بمقتضاها.

كما أن التأثير في القلوب وتجديدها بالكلمة المحيية لا يعتمد على انتخاب الكلمات التي تسر السامعين وتناسب مطالبهم وأمزجتهم، ولكن في الاستماع الباطني لما يمليه الروح القدس من الكلام الذي يُسِرُّ الله ويتناسب مع الطريق الضيق الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية. فهذه الكلمات هي وحدها القادرة أن تغير وتجدد وتحيي من الموت.



الوسائل التي يستخدمها المسيحي في عمله داخل المجتمع :

نحن هنا بصدد الوسائل العامة وليس الفردية .

لذلك لسنا أحراراً أن نختار ما يروق لأمزجتنا أو لنظرتنا العلمية أو خبرتنا الخاصة في اختيار وسائل العمل والخدمة والتوعية الروحية في المجتمع الذي نعيش فيه ، لأننا مرتبطون بعقيدة ذات أصول ثابتة وتقليد كنسي موروث .

والأرثوذكسية بتقاليدها الروحية العميقة لا تتناسب مع الخدمات والأعمال الارتجالية في المجتمع ، التي قد تتسبب في انحراف الروح الكنسية برمتها وتخرج بالتقليد عن إطاره المحدد ، مما يؤدي حتماً إلى تشويه الكنيسة وتطويرها إلى أوضاع غربية غريبة لا تتناسب مع روحانية الشعب البسيطة الموروثة ، علماً بأن بقاء الروحانية الشعبية على مستواها التقليدي كفيل بحد ذاته أن يصد عن الشعب والمجتمع كله انحرافات المدنية وشرور الثقافات المعاصرة و بدعها الفكرية والأخلاقية .

لذلك يهمنا جداً أن ننبه كل إنسان مسيحي في الكنيسة أن يحذر كل الحذر من كل دعوة إلى التطوير والتجديد في الكنيسة أو الدين أو العقيدة أو السلوك بمعناه الاجتماعي العصري ، أو بمعناه الفكري التربوي الحديث ، أو بمعناه الفلسفي التجريدي .

فالتطور والتجديد في الكنيسة لا يحتمل إلا معنىً واحداً لاهوتياً إنجيلياً ، وهو أن ينتقل الإنسان من حياة حسب الجسد إلى حياة حسب الروح . هذا هو التطوير الإلهي في أسمى معانيه وفعله وحقيقته ، لأن في هذا المعنى فقط يكمن مضمون الميلاد الجديد أي الانتقال بالفعل من الموت إلى الحياة ، ومن الظلمة إلى النور ، ومن الحياة حسب أركان هذا العالم ، إلى حياة حسب الحق في المسيح يسوع .

ولكي نوضح خطورة هذا الأمر يكفي الرجوع إلى الصورة المحزنة والمزعجة التي آل إليها المجتمع المسيحي العصري في الغرب ، لكي يرى كل إنسان هنا ويؤمن بخطورة النتائج المترتبة على استحداث التطويرات والتجديدات الاجتماعية داخل الكنيسة ، ولكي يعرف كل إنسان تستهويه التجديدات الفكرية والتربوية القائمة على العلوم الحديثة ، كيف أن هذه الوسائل عينها قد تسببت في انهيار التقليد المسيحي الموروث في الغرب وأخرجت جيلاً عصرياً من المثقفين المتحررين ، المجردين من الروح ، عادمي الإحساس الديني ، مستهترين غير مكترثين بأية قيمة للأخلاق ، مجدفين مدّعين لا يؤمنون بالله ولا يشعرون بأية مسئولية نحو القريب ولا الشعوب الضعيفة ، لهم فعل قايين وضميره ، يعبدون اللذة ويتهافتون على التوافه ويتحصنون بالإنتاج .

لذلك فالحقيقة التي ينبغي أن تظل جزءاً لا يتجزأ من إيماننا هي أن التقليد الديني الذي ورثناه ، بالرغم مما فيه من بعض العيوب ، إلا أنه حاجز الأمان العظيم الذي يحجز طغيان البدع العصرية والثقافات المنحلة عن الكنيسة .

بل ويلزمنا أن نتمسك به ونشرحه ونعلمه كجزء لا يتجزأ من قانون إيماننا ، وذلك بعد أن نصفيه من الشوائب التي تخللته عبر الأجيال . وهذا ما نرجو أن نوفيه حقه في مقالات قادمة إن يشاء الله ذلك .

والآن لكي نؤمن أن مجتمعنا المسيحي لا يزال بخير نتيجة لتمسكنا بالكنيسة وتقاليدها وصلواتها ، لا بد أن نرجع دائماً إلى صورة المجتمع الغربي المسيحي ، والتأمل في ما آلت إليه المُثُل الروحية واللاهوتية والأخلاقية نتيجة تطويره حسب العلم و بوسائل العلم ، سواء كان ذلك بسبب استخدام وسائل عقلية ونفسانية لشرح الإنجيل بدل تطبيقه عملياً بالروح .

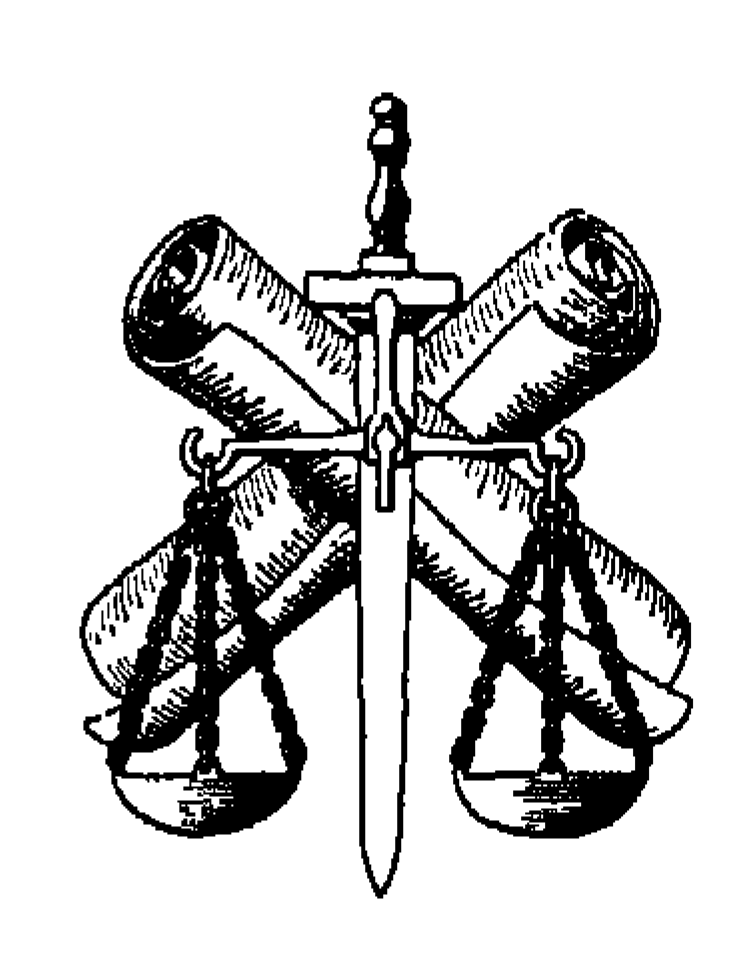
لأنه بكل أسى نقول إن المجتمع المسيحي العصري في الغرب أصبح تقريباً يؤمن أن الإنسان هو سيد نفسه ، وأنه مصدر إلهام ذاته ، وأن الإنسان بحد ذاته كفيل أن يكون

غـايـة نفـسه ، وأنه يستطيع أن يسلّح نفسه بالأخلاق التي تنفعه بدون نعمة الله ، وأن عقل الإنـسـان ممكـن أن يحـل محـل الإنجيـل ، وأن الـعلم يحل محل الله ، والبحوث المتقنة هي الـنبوة. والاتجاه الاجتماعي على وجه العموم (حتى في الدول التي فيها تنتهك السياسة من قـيـمـة الإنـسان الفرد وتحتقر روحه وتهين ضميره وتستعبده في سبيل تخطيطاتها الكبرى) نجـد أنه يمجد الإنسان ويؤلهه ، ويعطيه في حدوده الشخصية حريته المطلقة بالرغم من أنه لا يستطيع أن يضبط نفسه ، ويعطيه الحرية بدون أية مسئولية أخلاقية ، لذلك استطاع أن يمزق بها نفسه ويمزق بها ضميره .

كـذلـك فـالاتجاه الاجتماعي العام ينادي بالمساواة كنوع من العدالة و بدون تحفظ ، حتى ولـو كـانـت ضـد الـعـدل . لذلك كانت النتيجة فقدان ميزان التعادل الروحي على أسـاس اسـتـعداد الأخذ والعطاء. فالكل أصبح يؤمن أنه في غير حاجة إلى الأخذ وفي غير اضطرار للعطاء!! أو على حد قول البعض «كلنا كهنة» !

ورحمة بالقارىء نكتفي بهذا القدر.

فهل لا نخاف حينما نستخدم وسائلهم؟ وهل لا نرتعب حينما نسترشد بكتبهم؟ هل لا نصرخ في وجه من يمجد أساليبهم؟



المفارقة الشديدة
بين الوسائل الروحية والوسائل الاجتماعية:

إزاء هذه الخطورة التي تتربص بمجتمعنا الروحي بسبب إلحاح بعض المثقفين على نقل الطرق والوسائل الغربية ومحاولة تطبيقها على مجتمعاتنا المسيحية، نقدم بعض التوجيهات التي تكشف مقدار الفوارق الكبيرة التي تميز الوسائل المسيحية الروحية عن الوسائل الاجتماعية.

أولاً:

الكنيسة ليست عدوة للعلوم أو الثقافة المعاصرة بكل فروعها أو المدنية الحديثة بوسائلها واختراعاتها، وبالتالي هي ليست عدوة أيضاً للأنظمة الاجتماعية الحديثة الموجودة في العالم لأنها بطبيعة الحال منبثقة من العلوم والثقافة الحديثة. ولكن الكنيسة تؤمن أن العالم له علومه وأنظمته الخاصة واجتماعياته، كما أن الكنيسة لها بناؤها الروحي وأنظمتها الخاصة وأسرار اتحادها وامتدادها.

ثانياً:

وكما أن أنظمة العالم واجتماعاته تقوم على أساس العلوم والأرقام والقوة والمال والسياسة والتكتلات والموارد الطبيعية، كذلك أنظمة الكنيسة تقوم على أساس حقائقها الروحية الإيمانية التي تستمد أصولها وكيانها من النعمة والإلهام والمواهب غير المنظورة.

إذاً، فهناك فوارق جوهرية بين طبيعة العالم وأنظمته ووسائله، وبين طبيعة الكنيسة وأنظمتها ووسائلها.

ومن هذا ينشأ بالضرورة أن العالم حر عن الكنيسة، والكنيسة أيضاً حرة عن العالم.

بمعنى أن التنظيم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في العالم لا يستمد كيانه من النعمة أو الإلهام أو المواهب غير المنظورة، بل يستمدها من طبيعة العلوم والثقافات والعناصر العالمية الأخرى.

وكذلك فالتنظيم الكنسي لا يستمد كيانه من الاقتصاديات والسياسة العالمية بالطبع، بل يتحتم أن يستمدها من أصول الإيمان. وهذا يحتم على الكنيسة أن تلتزم حدودها فلا تفرض سلطانها على العالم، كأن تكون مسئولة عن تدابيره الاقتصادية أو السياسية.

فالكنيسة لا تستطيع أن تتصل بالعالم اتصالاً مباشراً، وإنما هي مسئولة عنه مسئولية غير مباشرة، أي روحية بالصلاة و بثّ روح العبادة والتقوى والسلوك السوي، مستخدمة في ذلك وسائلها الخاصة التي تنحصر في الإيمان والنعمة والإلهام والمواهب غير المنظورة.

ثالثاً:

أنظمة العالم، و بالتالي وسائله، نافعة جداً للعالم، ولكن في نفس الوقت لا تنفع الكنيسة لأنها ليست من طبيعتها. فالرسم البياني يستطيع أن يتنبأ للدولة بواسطة الأرقام والإحصاءات عن حاجة الدولة وكفايتها بعد عشر سنوات مثلاً، لذلك يعتبر علم الإحصاء مع علم الاقتصاد والتخطيط، بالنسبة للعالم، كالنعمة والإلهام والنبوة بالنسبة للكنيسة تماماً.

و بديهي إذا حاولت الدولة الاعتماد على النعمة والإلهام والنبوة التي في الكنيسة لبناء مستقبلها الاقتصادي وتركت علومها وإحصائياتها، فحتماً ستفشل وتصير أضحوكة في وسط الدول الأخرى.

و بديهي أيضاً إذا حاولت الكنيسة الاعتماد على العلوم الاقتصادية والتخطيط والسياسة لبناء مستقبلها الروحي وتركت عنها الإيمان والنعمة والإلهام ومواهبها الروحية

غير المنظورة، فهي طبعاً ستفشل كما فشلت كنائس الغرب، بل وتصير ضُحكة لدى السماء لأنها تركت الينبوع الحي وذهبت تحفر لنفسها آباراً مشققة لا تضبط ماءً.

رابعاً:

أنظمة العالم تقوم على ثوابت محققة. فاليوم لدى الدولة أربع وعشرون ساعة بكل دقة وتحديد، والقوة تقاس بمقياس دقيق، والوزن له ميزانه المضبوط، وكذلك كل ما يتعامل به العالم له مقاييس ثابتة مفروضة ومحتمة، وإلا يختل ميزان العالم.

أما الكنيسة فعاملاتها مع العالم تستمدها كلها من الله، وأنظمة الله لا يمكن تحديدها ولا تثبيتها. فمعروف بصورة قاطعة أن اليوم عند الله قد يساوي ألف سنة وألف سنة قد تساوي ليل أمس الذي عبر (مز ٩٠: ٤).

فكيف نحسب بعد ذلك حساب الأيام في بناء الروح ونموها؟

وكذلك فواحد مع الله قد يغلب ربوة من الرجال، وألف رجل قد يهربون جزعاً وخوفاً بدون طارد، وأظن قصة جدعون وجيش مديان مع كثير غيرها من معاملات الله مع الكنيسة يثبت هذا. فقوة الله لا يقف أمامها جيوش مجيشة ولا أسود ولا نار ولا أبواب مغلقة.

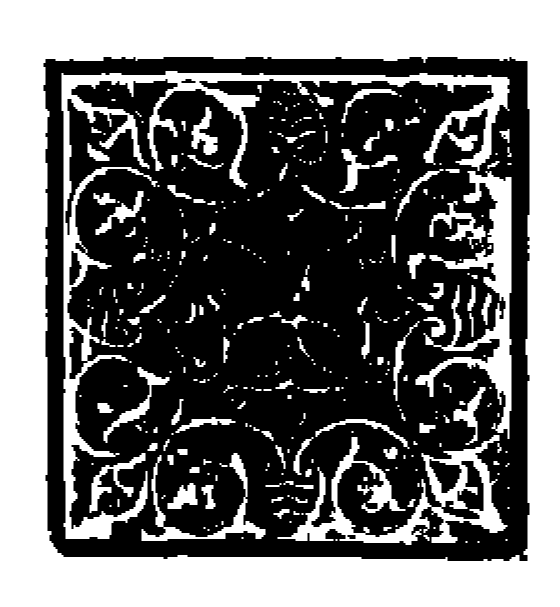
والله يجب أن نعتمد على هذه القوة ونؤمن بها فوق كل قوة أخرى، فكيف نخشى بعد ذلك أية قوة على الأرض؟

وفي مواضع ومواقف كثيرة لعن الله الذي يعتمد على «ذراع بشر»، وغضب على داود لأنه أراد أن يعرف عدد شعب الله لمجرد التباهي بقوة شعبه؛ فكيف بعد ذلك نعتمد على عدد المؤمنين أو كثرة الشعب أو تكتل المسيحيين أو انضمام الكنائس كمصدر للقوة؟

إذاً، فليس فقط غير جائز وغير مناسب لطبيعة الكنيسة أن تستخدم وسائل بشرية

عـالمية في تـأثيـرهـا على المجتمع، بل وخطر عليها جداً من جهة الله، لأن ذلك معناه أنها تركت الله الحي ورفضت الاعتماد على قوته ونعمته وذهبت تطلب قوة ومشورة ومعونة من العالم.

كما أنـه يظـهر من هذه المفارقة الشديدة بين ضعف وسائل العالم بالنسبة لقوة وسائل الله، أن أنـظـمـة الكنيسة إن هي بقيت إلهية معتمدة على الله ومستمدة منه القوة والنعمة والإلهام، صارت أقوى من العالم كله أضعافاً مضاعفة. أما إذا ارتدت الكنيسة إلى أنظمة الـعالم، صارت بالضرورة وحسب المنطق جزءاً صغيراً جداً من العالم يمكن قياسه بمقتضى النسب البيانية وأرقام الإحصاء!!



تأمين الكنيسة ضد الذوبان في المجتمع:

أولاً: فلنلتفت إلى قول المسيح: «لأن أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم.» (لو١٦: ٨)

الواقع أن العالم تسلح بالمعرفة المنطقية والفلسفية الجدلية، وهو قادر بالفعل ــ لو دخلت معه الكنيسة في أي جدل على أساس المنطق ــ أن يغلبها ويردها خاسرة مهزومة.

وكذلك، لو حاولت الكنيسة أن تستخدم الحيلة والسياسة والخداع لكسب مواقف ضد العالم فهي حتماً ستدخل في فضيحة وخزي علني، لأن العالم إذا مسك على الكنيسة أو أي مسيحي موقفاً مخادعاً غاشاً ضد ما ينادي به إنجيله، فإنه يصرعه ويقضي عليه.

وكذلك، إذا مالت الكنيسة إلى شهوة المال والغنى والسلطان، فقدت قوتها ضد العالم وصارت محتقرة ومرذولة.

والعكس أيضاً صحيح، إذا دخلت الكنيسة مع العالم في حوار روحي على أساس الإيمان والبر والتعفف، فالعالم لا يطيق أن يقف أمامها حتى ولو كان ممثلاً في ملك، فإنه حتماً يُطأطىء رأسه!!

وإذا ما واجهت الكنيسة العالم متسلحة بالحق فقط دون استخدام أي تهديد أو وعيد، ودون أن تعتمد على أية قوة إلا الله وحده واستعدادها للموت، فالعالم يفزع من الكنيسة ويسلِّم بحقها!!

وإذا تقلعت الكنيسة لتخدم العالم بروح الله و بفقرها وعوزها دون أن يكون لها ما تكافىء به ودون أن تطلب ما تكافأ به، فالعالم يصغي لها ويتعلم ويقبل ما لروح الله.

ثانياً: الذي يحفظ للكنيسة كيانها الروحي و يؤمِّنها ضد الانحلال والذوبان في المجتمع **هو أن تبقى روحانية بالفعل.** فهذا كفيل أن يحفظ لها قوة تفاعلها مع العالم

باستمرار، لأنها إذا لم تتفاعل مع العالم فإن مبادئها وإيمانها وأخلاقياتها تتجمد أولاً على هيئة شعارات «مقدسة» وأسماء «ميتة»، ثم تصير كمجرد صور وتماثيل وآيات مكتوبة بماء الذهب داخل متحف!

فإذا تجمدت مبادىء الكنيسة وروحياتها، أي فقدت حيويتها بالتأثير، وكفَّت عن تفاعلها في المجتمع نتيجة فقدانها لنشاطها الروحي، فالعالم يبتدىء يطاردها حتى يحصرها بالفعل داخل أسوارها ويضطهدها بمكر ويقطع عنها مصدر حياتها الجديد أو بالحري مصدر شهوتها — أي المال والغنى والكرامة — حتى تخور وتخرج عن رزانتها المصطنعة وتسلم نفسها لتضمن لنفسها الدينار والكرامة.

وهكذا فلن يوجد للكنيسة على وجه العموم أي مفر، فهي إما تبقى أمينة للمسيح حتى النهاية، وهذا يلزمها أن تؤمن به وحده وتعتمد عليه في كل وسائلها ولا تكف عن نشاطها الروحي الداخلي كمصدر لقوتها وحيويتها وتفاعلها المستمر مع المجتمع؛ وأما إذا هي فقدت نشاطها الروحي واعتمادها على قوة الإيمان في مواجهتها للعالم فهي حتماً تفقد شكلها الإلهي وتذوب وتصير جهازاً من أجهزة العالم وقطاعاً من قطاعاته.

وبالنهاية، لا يوجد للكنيسة أو لأي مسيحي مدخل لغزو العالم المتحصن بالعلم ضد الروح، ولا طريقة لمناظرته، أو تخطئة أساليبه، أو إصلاح آثاره التي تركها في المجتمعات الفقيرة المنبوذة، ولا أية وسيلة إلا بالاعتماد الكلي على الإلهام والنعمة التي أعطاها الله للكنيسة كهبة والتي يضمن عملها في الساعة الحرجة: «ها أنا معكم كل الأيام...».

أما إذا تمشت الكنيسة مع المدنية المعاصرة خطوة واحدة واستخدمت ثقافتها واجتماعياتها ونفس أساليبها (أي ثقافة واجتماعيات وأساليب المدنية) لتجذب العالم إليها، فهي — مهما نجحت في بداية الطريق بسبب جهل من تتعامل معهم — إلا أنها في النهاية ستقف عريانة... عريانة من النعمة التي تجاهلتها.

الفراغ المخيف الذي خلفته الخدمة غير الروحية :

الصراع الذي يعانيه الشباب اليوم هو الإحساس القاتل بالفراغ الروحي في الجو الذي يعيش فيه ، وقد اشترك في تكوين هذا الإحساس لدى الشباب عامة عدة أسباب خطيرة :

أولاً : هو ضعف القادة الروحيين الذين يقتحمون ميادين الخدمة والقيادة والكلام ، وهم في حالة الصفر تقريباً من جهة الإلهام والنعمة ومواهب الروح القدس ، وكل الاعتماد الذي اعتمدوا هم عليه والذي اعتمد عليه الناس في تزكيتهم لتبوء مراكز القيادة والخدمة أو الكهنوت ، يتوقف على مقدار درجاتهم العلمية ومقدار تعرفهم على النواحي الروحية إن كان بالقراءة أو الدراسة ، وصار هذا هو رأس مالهم في الخدمة .

والحادث الآن أن حاجة البيئات قد استكفت تقريباً من جهة المعرفة العامة ، سواء كان في الأمور الروحية أو الثقافات الدينية . فالكتب والمجلات نشرت المعرفة العامة ، والمعرفة العامة بالأمور الروحية كعلوم وثقافات لا تزيد الإنسان أي شيء في الروح بل ربما تجعله ـــ دون أن يشعر ـــ يواجه الإحساس بالتحسر والندم واليأس لأنه عرف أشياء وسمع عن أشياء لا يملك منها شيئاً . وهنا يبدأ أول تكوين للإحساس بالفراغ تجاه حياته الخاصة حينما يقارنها بمعرفته .

وحينما يلتجىء الإنسان إلى هؤلاء القادة ، يصاب بخيبة أمل أشد لأنه لا يجد عندهم ما يسند روحه !

ثانياً : انحراف المنهج الروحي الأرثوذكسي بجملته عن أصوله الأولى وتقاليده الموروثة ، فبدل أن كان يتجه مباشرة إلى تنشئة قديسين وأناس أتقياء يخافون الله وشباب طاهر متقشف ورع محب للمسيح ، انحرف المنهج انحرافاً خطيراً ناحية التثقيف العلمي

بالكتاب المقدس، وحشو العقل بالمعرفة، وخلط الدين بالمصطلحات والمبادىء الفلسفية والتربوية.

والواقع أن المنهج الأرثوذكسي الأصيل هو الوحيد الذي يقدر أن يشبع الروح البشرية، ويجعل الإنسان يحس بوجوده الحي في الله، ويحس بوجود الله الحي في كل أمور الحياة حوله و بالأخص في الأتعاب والضيقات، حيث يمكنه باستمرار أن ينتفع من أتفه الأمور التي تجري حوله، كما يمكنه أن يحول كل حادثة تحدث له إلى معنى روحي وكسب ونمو وفرح، إذ يجد يد الله تصنع كل شيء وتدبره لخلاصه.

أما المنهج العلمي، فبالرغم من أنه يملأ فراغ عقله، إلا أنه لا يعطيه أية فرصة ولا أي منفذ يستطيع بواسطته أن يتحقق من وجوده في الله أو وجود الله معه. فالميدان العقلي والميدان الروحي مستقلان تمام الاستقلال ويستحيل النفاذ من الواحد للآخر مباشرة أو بسهولة، لأن ذلك يحتاج إلى عمل النعمة المباشر، لأن النعمة هي وحدها القادرة أن تحول المعرفة إلى روح والروح إلى معرفة.

لذلك أصبح الاعتماد الكلي في المناهج الدينية على التثقيف العقلي دون الاتجاه المباشر للعناية بالروح وتوجيهها للثبوت في المسيح حسب الأصول الآبائية وحسب الوسائل الروحية في التسليم، مصدراً من المصادر لتكوين هذا الفراغ الذي بدأ يزحف على المجتمع كله.

ثالثاً: انطباع العمل والخدمة بطابع حب الكثرة، والاهتمام بالأعداد، و بنسبة الحضور، وتركيز كل الاهتمام على الكمية والجماعة وليس على الفرد.

فكل خادم وكل كاهن وكل قائد على وجه العموم تجده يضحي بالفرد في سبيل الجماعة — على نظرية قيافا —، وأعظم ما يفرح الأب أو الخادم هو كثرة الأعداد حوله؛ وطبعاً هذا يكشف روح الذاتية والاتساع وحب التعظم في القيادة، كما يكشف عن

ضعف روح البذل من أجل خلاص النفس الحقيقي. هنا نجد الخدمة في المجتمعات تنحرف انحرافاً خطيراً عن مبدأ الإنجيل الأساسي الذي جعله المسيح معياراً للقيادة الحقة: «أي إنسان منكم له مئة خروف وأضاع واحداً منها ألا يترك التسعة والتسعين في البرية ويذهب لأجل الضال حتى يجده.» (لو١٥: ٤)

هذه الروح بطبيعة الحال تجعل الفرد ــ وخصوصاً الضعيف ــ يحس بضياع وجوده وسط الجماعة، وفي البداية يشعر بألمها المر على نفسه لأنها تجعله يواجه إحساساً بالفراغ في وسط الجو الذي يعيش فيه، خصوصاً إذا كانت القيادة بعد ذلك غير مقتدرة حتى لتغذية روح الجماعة المجتمعة.

أما في النهاية فالفرد يستسلم لهذا الشعور وهو شعور الضياع وسط الجماعة، أو بمعنى آخر الذوبان في المجتمع. وهذا بحد ذاته كفيل في لحظة من اللحظات أن يهدم روح الجماعة كلها، لأن قوة الجماعة تكمن في قدرة الفرد على التعبير عن وجوده وكيانه الروحي بالتفاعل الحي مع الجماعة وعلى الجماعة.

رابعاً: وجود مفارقة صارخة بين المبادىء الروحية والمُثُل العليا التي ينادي بها القادة الروحيون و بين حقيقة الواقع، سواء حقيقة الواقع بالنسبة لحياة هؤلاء القادة أنفسهم وعدم تطبيقهم الشخصي للمبادىء التي ينادون بها، أو حقيقة الواقع بالنسبة لإمكانية الجيل الروحية فيما يختص بقدرتهم على تنفيذ هذه المُثُل والمبادىء.

هذه المفارقة الصارخة التي يعيشها الشباب اليوم وخصوصاً الشباب الرزين المتطلع للقداسة الحقيقية والمُثُل الروحية العالية، جعلته يقع في حالة شك شديد من جهة صدق هذه المبادىء في حد ذاتها وصدق هؤلاء القادة في تعليمهم، وجعلت العالم الروحي بالنسبة لهم يبدو عالماً من الكلمات.

خامساً: فقدان النظرة الروحية الثاقبة التي يمتاز بها دائماً رجال الله والخدام الملهمون في معرفة علل النفوس، وسبب انحراف أفكار الجماعة، وكشف الأسباب الروحية

العميقة التي أثرت ولا تزال تؤثر في الشعب. هذه وحدها تعتبر مصيبة عظيمة لأن نتيجتها الحتمية الالتجاء إلى حلول غير روحية وإعطاء ارشادات ليست من الله لا تنفع بل قد تزيد العطب والجفاف والانحراف الفكري.

وهذا النقص الذي أصاب القادة جعلهم يلتجئون إلى وسائل علمية ونفسانية، وهم غير متخصصين في هذه العلوم ومعلوماتهم عنها لا تزيد عن مستوى العامة أو التلاميذ، والنتيجة أنهم يعطون نصائح وإرشادات كفيلة أن تزيد من حالة الاضطراب النفساني والعصبي مما جعل كثيراً من الشباب المثقف يفقد ثقته في رجال الدين والقادة و بالتالي الكنيسة.

سادساً: انتشار المعرفة الآبائية نشرت بالتالي الوسائل النسكية (التي مارسها الآباء بشروط وتوجيهات تحت إرشاد الشيوخ وبمعونة الروح ومؤازرة النعمة وضبط النظام النسكي الجماعي) وجعلت هذه الوسائل سهلة رخيصة تحت أيدي القادة الروحيين ينصحون و يرشدون بها النفوس، دون أي اعتبار لمستوى النفس وقدراتها العصبية وإمكانياتها الروحية والنفسانية والصحية. مما أدى إلى ضحايا كثيرة وجعل الذين أخفقوا عبرة خطرة أمام الباقين كشهادة لعدم الثقة بهذه الوسائل.

سابعاً: محاولة بعض القادة استخدام وسائل غير روحية لسد الفراغ الروحي، وذلك بخلق منفعة للشباب من انتمائهم للكنيسة حتى لا يشعروا أو ينتبهوا إلى الفراغ الذي فيهم أو إلى النقص الذي في الكنيسة لإشباع حياتهم، مستخدمين في سبيل ذلك منافع رياضة جسدية أو ثقافية أو اجتماعية أو حتى نفعية مالية. كل هذا فوق أنه يستحيل أن يملأ فراغهم الروحي فهو يزيد من إحساسهم بإفلاس الكنيسة روحياً. فالكنيسة ينبغي أن يكون انطباعها في ذهن الشباب انطباعاً روحياً مقدساً: «بيتي بيت الصلاة يدعى» (مت ٢١: ١٣)، كما ينبغي أن يكون ذلك بالفعل. لأن الشباب إذا امتلأ بالصلاة وروح التقوى فسيكون هذا كفيلاً أن يتفاعل مع كافة أجواء العالم الفاسدة ويغلبها.

التجاء القادة الروحيين إلى الوسائل غير الروحية لملء «فراغ» الشباب، هو خدعة. لأنه، وإن كان يسليهم مؤقتاً وإن كان يحفظهم لمدة سنة أو اثنتين، فهو كفيل بعد أن ينضج الشباب أن يجعله يحس بالفراغ الكبير الذي كان يعيشه في الكنيسة، لأنها بدل أن تعبئه بالروح القدس وتملأه بقوة الصلاة وتذيقه عشرة الحياة مع المسيح، ملأت فراغه بالمشاريع والأعمال والخدمات التي لم تبنِ روحه على شيء.

ومهما كانت الأعذار والأسباب في استخدام هذه الوسائل والتسليات والنشاطات التي تبدو اجتماعية وجميلة، فالسبب المختفي وراءها هو الإفلاس من روح الصلاة الحقيقية والقدرة على جذب الشباب لممارسة العبادة والتقوى بوقار المسيح ورزانة الإنجيل.

فإذا استطاعت الكنيسة أن تؤدي واجبها الروحي تماماً وكانت قادرة فعلاً لملء حياة الشباب بالصلاة والخبرة الروحية، أصبحت كافة الوسائل غير الروحية و بقية النشاطات الاجتماعية زهيدة القيمة جداً في نظر الشباب أنفسهم وربما أحجموا عنها:
«لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل ولكن التقوى نافعة لكل شيء إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة.» (١تى ٤: ٨)

ثامناً: محاولة التعويض عن الإفلاس من النعمة وتغطية الضعف الروحي بفرض الشعارات الدينية والتحمس العصبي الكاذب لممارسة الفرائض الدينية والتقديس اللفظي الصوري للكنيسة وقديسيها و بث الغيرة المظهرية على العبادة، كل ذلك سينتهي حتماً بمواجهة فراغ خطير حينما يصطدم الشباب بالواقع، عندما يحاولون التمسك بهذه الوسائل إزاء التجارب والمخاطر، فلا تقوى أن ترفعهم ولا درجة واحدة فوق ذواتهم، فيبتدئون يصارعون بقوتهم حتى يخوروا.

إذاً، فتقوى الخادم أو الكاهن وحصوله على حياة غنية بالنعمة وثمار الروح القدس هي الأساس، لذلك اشترطها الإنجيل مقدماً فيمن يتقدم للخدمة؛ والحياة التي يحياها

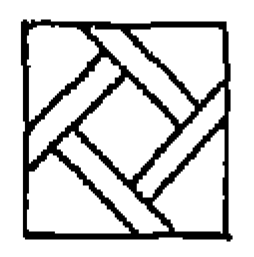
القادة في المسيح هي الحياة التي يستطيعون أن يهبوها للآخرين، وليس ما قاله القديس فلان عن الصلاة ولا ما قاله القديس فلان عن التقوى ولا ما قاله القديس فلان عن النعمة.

وإذا ما لم يأخذ القادة الروحيون كل يوم روحاً من الله وتجديداً ذهنياً وتغييراً عن شكلهم، فلن يكون لهم قدرة على نفخ روح الله في الجماعة التي يخدمونها.

والخدام لن ينفعهم أن يكتفوا بتمسكهم وافتخارهم وتشديدهم على تقاليد الكنيسة المقدسة وطقوسها وعلومها ولاهوتها وآبائها، فهذه كلها لن تصلح بحد ذاتها أن تفيد أحداً؛ ما لم يكن لهؤلاء المسئولين شهادة من الله ومن ضميرهم، وتزكية من الروح القدس ومن سيرتهم، وأخذاً حقيقياً من الله، يجعل معرفتهم ملهمة بالنعمة لفائدة من يراهم أو يسمعهم أو يعيش بالقرب منهم.

و بالنهاية ليته يتضح لدى كل مسيحي يخدم باسم المسيح في الكنيسة أو في أي مكان، أن الشباب اليوم وكافة الناس على وجه العموم محتاجون إلى استعادة مركزهم الروحي الذي فقدوه وسط هذه الأسباب الكثيرة، التي قلناها والتي لم نستطع أن نقولها.

والأمر لا يتعلق بتعليم مبادىء ولا بإقامة مؤسسات ومشروعات، ولكن يتعلق أولاً وقبل كل شيء بقادة روحيين مبنيين ومتأصلين على أساس الإنجيل والمسيح والرسل، ينمون في مخافة الرب ويمتلئون بالروح القدس قبل أن يتجرأوا على قيادة النفوس ورعايتها.



القافلة تسير والفجر لا بد مشرق:

بالرغم من عتمة الليل التي تعبر فيها الكنيسة إلا أنها تسير، وإن كان ببطء وتعب كثير ـ والعالم المربوط بها يزحف من ورائها في تعثر شديد ـ فالكنيسة لم تتوقف أبداً، لأنها من روح الله؛ ولكن عبئها ثقيل لذلك تبدو في سيرها وئيدة، وثقل العبء الذي تضطلع به ليس هو بسبب كثرة المسئوليات وضخامتها كما يبدو بخداع البصر، ولكنه ثقيل بسبب كونه روحياً خالصاً والروحيات الخالصة عزيزة في هذه الأيام. لهذا يبدو عبء الكنيسة ثقيلاً جداً.

كانت وصية الرب للتلاميذ أن يتلمذوا كل الأمم ويعلموهم كل ما أوصاهم به ووعدهم أنه سيكون معهم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. ولكن إلى الآن، وحسب آخر إحصائية دقيقة قامت بها إحدى الهيئات العالمية، لا يزال ثلث العالم لم يسمع عن المسيح نهائياً، والثلث الآخر سمع عن المسيح ولكن لم يقبل شيئاً من تعاليمه قط، والثلث الباقي آمن بالمسيح ولكن غالبيته لم يعرف بعد المسيح معرفة حقيقية.

إذاً، فوصية المسيح لتلاميذه لا تزال قائمة، وأمره يحتاج إلى تنفيذ، والنير والرسالة واقعان على أعناقنا لا مفر.

فهل من ذبائح حية تتقدم لفدية العالم؟ نقول ذبائح وليس عبقريات، نقول ذبائح تفدي بموتها وليس بحياتها!!

فقد تكون أيها القارىء ضعيف الجسم أو مريضاً أو غير مقتدر في الكلام ولا قادراً على الوعظ وليست لك دراية بأصول الخدمة، ورقيق الطباع حساساً أو ذا حياء خجولاً؛ هذا كله لا يدخل في كفاءة الذبيحة بل ربما يزيدها حسناً وقوة!... لأن النار الإلهية حينما تشتعل في الذبائح، فأول ما تأكل الكفاءات والمهارات البشرية وكل تزكية العيون

وفخر العقول وقوة الشكيمة و بأس الرجل (١ كو١: ٢٦ — ٢٩). ولا يتبقى في النهاية إلا «رماد عِجْلة» له قوة التطهير والتقديس، أي لا يتبقى شيء بشري قط من النفوس التي تكون قد اضطرمت بحب المسيح وماتت معه على صليب البذل ولم تعد تحمل إلا سمات المسيح في الجسد شهادة حية، وسمات المسيح جروح مميتة!!

العالم اليوم يقف في حسمة البعد عن الله، وفي ورطة المدنية يمد يده ويصرخ إلى الكنيسة كما صرخ الرجل الأوروبي المكدوني إلى بولس في الرؤيا منذ البدء: «اعبر إلى مكدونية وأعنّا» (أع١٦: ٩). ولكن يا للحزن العميق والأسى! فالكنيسة انتتف ريشها ولا تقوى على الطيران مثل بولس ذلك الطائر الخفيف الذي كان له أجنحة الروح القدس!!

الدعوة إذاً هي إلى تخفيف الحمل، أن ننفض كل اهتمام دنيوي ونتخلص من ثقل الجسد بآماله وشهواته ونتقدم بأنفسنا، نقدمها ذبيحة لله ليلتهمها الروح القدس حتى يفنيها فنطير فوق العالم، وحينئذ نستطيع أن نجذبه إلى الله بقوة تعادل قوتنا عدة آلاف من المرات لأنها تكون قوة الروح الخالص!!

ألم يقل الله لإبراهيم علانية أن عشرة أبرار يستطيعون أن ينقذوا مدينة بأسرها من الهلاك؟ لا بأعمالهم ولا بصراخهم بل بوجودهم، مجرد وجودهم!، الذي من الممكن أن لا يحسه أو يكتشفه إنسان قط!

بل أَلَمْ يقل الله لإرميا النبي: «طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها» (إر٥: ١)؟

أليس هذا هو معنى الفدية والذبيحة بأجلى معانيها، فواحد قد يفدي مدينة عظيمة كأورشليم؟!

أورشليم في أيام إرميا كان فيها الهيكل العظيم، وعدة آلاف من محترفي الخدمة،

وتقديم الذبائح التي لا تكف الليل والنهار، ولكن كان يعوزها بالرغم من ذلك إنسان واحد فقط يعمل بالعدل ويحب الحق ليصفح عنها الله وتنجو من الخراب فلم يوجد!!

العالم اليوم يصرخ طالباً فدية ، كل مدينة وكل قرية تصرخ تطلب فدية.

□ يا ذبائح الله الصغيرة ارفعوا نفوسكم سراً للمسيح وقدموا حياتكم كلها له ...

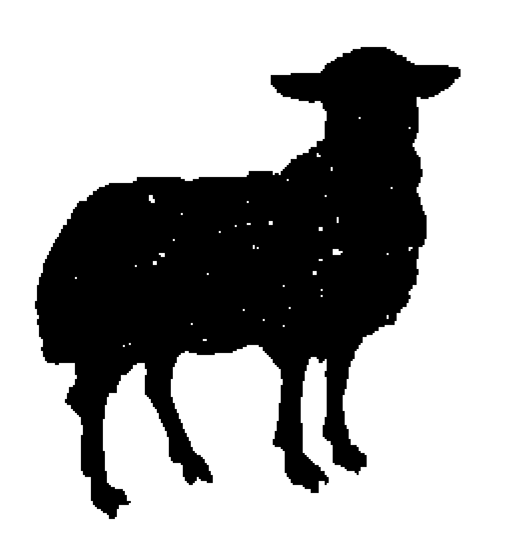
□ ابذلوها له وحده بالحب الكامل كمحرقة ، حتى يكتشف فيها العالم من بعدكم نور الصليب وقوته وعمله ...

□ طهارتكم وفقركم وصومكم توازن ثقل مخازي مدينة كبيرة كنينوى ...

□ صلاتكم ترد اللعنة عن ألوف ...

□ وموتكم عن العالم يفدي العالم ...

□ يا ذبائح الله الصغيرة تقدموا ولا تحبسوا نور الفجر عن العالم.



الفصل الثاني

في المعاملات الفردية

التي ينبغي أن يتبعها المسيحي
في علاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه

المعاملات الفردية:

يختص الإنجيل المعاملات الفردية بمنهج دقيق متسع، يحتار الإنسان في طوله وعرضه وعمقه وسموه.

فإذا ابتدأ الإنسان في تطبيق وصاياه فإنه يواجه في أصغرها عمقاً واتساعاً كأنه يواجه الإنجيل كله.

فالقول أنه ينبغي أن يبذل الإنسان نفسه من أجل أحبائه، لا يقلُّ في عمقه عن القول بأنه ينبغي أن نحب أعداءنا. وبين الاثنين صلة جوهرية وعمقها معاً ينحدر مباشرة من وصية الرب أنه يلزم الإنسان أن ينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبع المسيح.

ولكن لو حاولنا استخلاص منهج اجتماعي للمعاملات الفردية من وصايا المسيح، فالأمر يبدو مستحيلاً، لأنه لا يمكن ترتيب الوصايا ترتيباً منطقياً نستطيع أن نصعد به من وصية لأخرى. فلا توجد وصية واحدة في الإنجيل يمكن أن نضعها قبل الأخرى. فكل آية وكل وصية هي إنجيل في حد ذاتها.

لذلك، فالإنجيل يعسر استخدامه كأداة نرتقي بها في معاملاتنا مع العالم من درجة إلى درجة. والسر في ذلك أن الإنجيل لم يوضع ليوصل الإنسان إلى مستويات اجتماعية أفضل أو ليربط البشر معاً على أساس تطبيق وصاياه تطبيقاً منطقياً متساوياً؛ بل هو يعبِّر عن صلة الإنسان بالله أولاً، ثم يعكس هذه الصلة على المجتمع. فالإنجيل وُضع ليوصل الإنسان بالمسيح رأساً، والمسيح هو الذي يقود الإنسان في علاقاته مع الناس حسب الوصايا بحكمة فائقة الوصف وتدبير متقن خفي يذهل العقل، ليوصله من خلال هذه العلاقة الأرضية إلى الحياة الأبدية.

لذلك، فإن احتساب الإنسان نفسه قادراً بواسطة تطبيق الوصايا على اكتساب أخلاق طيبة أو فضائل أو سلوك حسن بين الناس، أمر يعتبر خارجاً أصلاً عن هدف الإنجيل. فالنجاح في هذا المضمار محدود و بلا أية قيمة روحية.

لأن الإنجيل لا يتعلق ولا يختص الحياة اليومية بالوصايا إلا على أساس الحياة الأبدية من خلال عمل المسيح وقيادته! فالإنجيل يوصل إلى المسيح أولاً، والمسيح يخوض مع الإنسان في معاملاته الكثيرة المتعددة مع كافة الناس ليهذبه بمقتضى الوصايا حتى تتهيأ الروح لميراثها الخالد في الحياة الأبدية.

بهذا ندرك سر مشكلة عمق الوصايا واتساعها وتعددها واتحادها، فهي:

أولاً: ليست لمجرد حياة أرضية أو لمجرد علاقات فاضلة مع الناس بل هي لتهذيب الروح لبلوغ مستوى الخلود مع الله في ملكوته.

وثانياً: لأنها لم توضع على مستوى فكر الإنسان المنطقي لينفذها بمعرفته، بل وُضعت على أساس أن المسيح هو الذي سيقوم بالتوجيه والقيادة والمعونة عند التنفيذ: «لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً.» (يو١٥: ٥)

إذاً، فالإنسان المسيحي لا يقف في استخدامه للإنجيل، في معاملاته مع الناس، عند حدود تكوين علاقات طيبة مع المجتمع. ولكنه ينطلق بخبراته التي يكتسبها في تفاعله المستمر مع المجتمع من مستوى أقل إلى مستوى أعلى في الروح استعداداً للحياة الأخرى.

وهذا الانتقال والتغيير المستمر الذي يجوزه الإنسان في تفاعله مع المجتمع على أساس الإنجيل ليس كأنه شيء سلبي بالنسبة لهذا العمر، بل على العكس، فالإنسان لا يخسر مطلقاً في خبرته الروحية مهما كان فيها من بذل وجهد. لأن السعادة الغامرة التي يحسها الإنسان أثناء تقدمه الروحي تجعله هو الرابح على الدوام، وتسبق وتُذيقه نوع الحياة الأخرى التي يجاهد من أجلها.

أما تغيُّر الإنسان المسيحي وتجدده المستمر أثناء تفاعله مع المجتمع، فشهادة علنية للعالم.

أي أن تفاعل الإنسان المسيحي مع المجتمع على أساس وصايا الإنجيل، هو هدف أساسي للإنجيل: «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس.» (مت ٥: ١٦)
أي أن تحوُّل الإنسان هو بعينه تحوُّل المجتمع كما يشمله المعنى السري للآية: «اجذبني وراءك فنجري» (نش ١: ٤)، لأن انجذاب إنسان واحد إلى الله يتبعه حتماً مسير الجماعة كلها بل وجريها!!

ولو تتبعنا الحركات الروحية والنهضات العظمى في العالم على مدى التاريخ، سواء كانت رهبانية أو تبشيرية أو وعظية، نجد أنها قامت كلها على أثر تحرك قلب إنسان واحد وانجذابه إلى الله بشدة.

كما أننا لو تتبعنا الأسباب والعوامل التي أشعلت قلوب الأفراد الذين قادوا الحركات الروحانية والنهضات العظمى التي غيَّرت معالم المجتمع البشري بأسره، نجد أن هذه الأسباب والعوامل تدور حول حقيقة واحدة وهي احتكاك هؤلاء الأفراد بالمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه. ولأنهم كانوا مشبَّعين بشحنة روحية اكتسبوها من تمسكهم العنيد بالإنجيل، صار احتكاكهم بالأوضاع السلبية سبب اندلاع النار الإلهية بكل ضِرَامها وبركاتها التي لا يزال العالم كله يسير بقوتها حتى اليوم.

ونحن إذ نقدم بعض إلهامات الإنجيل بخصوص المعاملات الفردية التي ينبغي أن ينتبه إليها الإنسان المسيحي في حياته اليومية، نقدمها كمحك نترجى منه هذه النار.

معاملة الخدم :

أول إلهام يقدمه لنا الإنجيل في الأصول التي نتبعها في علاقاتنا ومعاملاتنا مع الناس ، هو كسر الحواجز التقليدية التي أقامها المجتمع ضد الطبقات الحقيرة والمنبوذة ، وكانت حياة المسيح تفيض بحنان وود عجيب تجاه هذه الطبقات .

أما النور الذي يلقيه الإنجيل أمامك مباشرة فهو في معاملة طبقة الخدم . ولم يقدم المسيح في ذلك مجرد تعاليم ووصايا بل أراد أن يتبنى بنفسه قضية الخدم ويحمل بنفسه نير الأعمال المحتقرة ، فنجده ينتخب أقدس مناسبة وهي مناسبة تأسيس سر الجسد والدم اللذين للغفران والخلاص ليؤسس سر الأعمال الحقيرة ، كعمل متمم للمغفرة والخلاص ممثلاً في غسل أرجل التلاميذ ومسحها .

والإنجيل في ذلك لا ينزل بالإنسان (ممثَّلاً في شخص يسوع المسيح) إلى العمل الحقير (ممثَّلاً في غسل الأرجل)، بل يرتفع بالعمل الحقير إلى مستوى الله لأن المسيح بقدر ما تنازل ارتفع وجعل هذا قانون الحياة الأبدية .

والمسيح لما تنازل إلى مستوى الخدم والعبيد وأرادنا أن نمارس هذا التنازل : « كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً » (يو١٣ : ١٥)، لم يكن ينظر إلى رفع القيم الاجتماعية على الأرض ولا قصد أن يرتقي بالإنسانية إلى المُثُل الأخلاقية الطبيعية ، وإنما كان يعالج مشكلة الخلاص التي أعطاها جسده ودمه بعد أن أعطاها اتضاعه وتنازله .

لأن الإنسان بقدر احتياجه لجسد المسيح ودمه للمغفرة والخلاص ، هو محتاج إلى النزول والاتضاع إلى مستوى كافة الأعمال الصغيرة والحقيرة التي جمعها المسيح ومثَّلها بغسل الأرجل . وفي ذلك إشارة سرية عجيبة إلى أن ذبيحة المسيح الكفارية لا يستحقها إلا المنسحقون !... أي أن الخِدم الصغيرة والمحتقرة هي باب للخلاص !

والحقيقة أن هذا أمر مستغرب وقد اقشعر منه التلاميذ وخاصة بطرس، لما رأوا الرب يربط وسطه بمنشفة ويصب ماء في مغسل ويجلس على الأرض ويطلب أرجلهم ليغسلها ثم ينشفها بيديه. ولكن المسيح لا يلقي تعاليمه جزافاً ولا يعمل أعمالاً إلا لتكون قانوناً روحياً لحياتنا، فقد قصد بهذا العمل أن يخط في ذهن البشرية خطاً عميقاً لا يُمحى، وهو أن يكون الإنسان المسيحي مستعداً دائماً أبداً للتنازل إلى مستوى كل إنسان — مهما كان هذا الإنسان — على أن يكون هذا التنازل بالغاً حد غسل الرجلين!! هذا العمل عمله ابن الله بنفسه لكي يستد كل فم وتنتفي كل حجة إزاء تعظم الناس وقيام الطبقات.

إن الإلهام الذي يقدمه الإنجيل في تمثّل غسل المسيح للأرجل بلغ حد الإعجاز في تعليم الإنسان كيف ينحني أمام أصغر وأحقر أخ في البشرية. فقد صارت صورة المسيح وهو منحني على أرجل تلاميذه يغسلها وينشفها، وينشفها باجتهاد، منطبعة انطباعاً لا يمحى على كل خادم يصادفه الإنسان وهو يجهد في خدمة الآخرين وبالأخص في الأعمال الحقيرة! ومهما كانت الأعمال والخدمات فلن يكون فيها ما هو أصغر من الإنحناء على أرجل الناس وغسلها! «فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً قال لهم أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك. فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض. لأني أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً.» (يو١٣: ١٢—١٥)

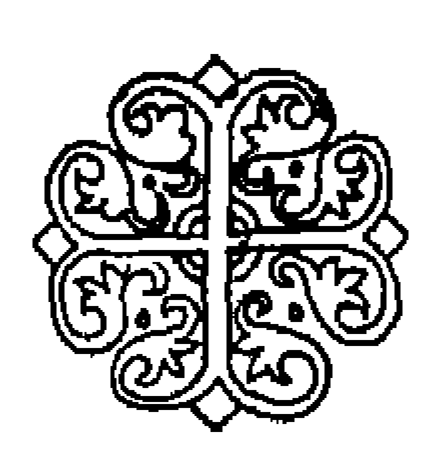
وفي موضع آخر يشرح الإنجيل هذا المثل هكذا: «**الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدم كالخادم.** لأن من هو أكبر؟ ألّذي يتكيء أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكيء؟ ولكني أنا بينكم كالذي يخدم.» (لو٢٢: ٢٦و٢٧)

يكفينا أن نخرج بهذا المثل الخطير في الحياة الاجتماعية من وجهة نظر الإنجيل، لأنه

كفيل أن يقلب كل مفهومات البشرية وأوضاعها ونظرياتها من جهة الطبقات وأصول معاملة الخدم وتقييم الخدمات الحقيرة. ونحن هنا لا نقصد الخدمات الروحية، ولكن خدمات الجسد التي على مستوى غسل الأرجل، كخدمة غسل الملابس وتنظيف البيت وغسل الصحون ودعك الحلل وشراء المأكولات وطهي الطعام ورفع الفضلات، سواء كانت هذه الخدمات داخل البيت أو خارجه، أو في محل العمل، لأن خدمة غسل الأرجل باتضاعها المذهل تضم كافة الأعمال التي من هذا النوع.

ومن خلال يد المسيح التي غسلت قدم الإنسان، نستطيع أن نكرِّم كل يد تمتد لتأدية أي خدمة لنا مهما كانت حقيرة أو صغيرة.

فإذا كان كبرياؤنا يمنعنا أن ننحني أمام الذين يخدموننا إكراماً للأقنوم الإلهي الذي انحنى سابقاً ليغسل أرجلنا، فلا أقل من أن نعطي الذين يخدموننا مكانتهم اللائقة في المجتمع كأصحاب حقوق مساوية لنا تماماً، ولنخشَ دموعهم وأنينهم وتنهدهم لأن لهم رئيس خدم في السماء يستطيع أن يطالب بحقوقهم.



معاملة الزملاء:

لكي نأتي على إلهام الإنجيل الذي ينير به الطريق أمامنا في علاقتنا مع زملاء العمل، نحتاج إلى مواجهة ثلاث مشاكل، كلٌّ على حدة:

الأولى: تختص باختلاف الأمزجة والطبائع والتربية بين الزملاء.

الثانية: تختص بتفاوت الكفاءات والمهارات والمواهب عندهم.

الثالثة: تختص بعدم الأمانة التي نكتشفها فيهم.

ولكن كمبدأ عام نستلهمه من الإنجيل قبل أن نخوض في هذه المشاكل، وهو جدير بأن نضعه أمام أعيننا باستمرار، هو أن نعتبر جو العمل كله بما فيه من زملاء طيبين وأردياء ومسئوليات خطيرة أو حقيرة و واجبات وأتعاب ومضايقات، هو جزء لا يتجزأ من خطة خلاصنا الذي يشرف عليها الرب بكل دقائقه ويستخدمه كأحد الوسائل الفعَّالة لتهذيب نفوسنا وقيادتها لبلوغ نضجها اللازم للعبور. وعلى ضوء هذه الحقيقة يلزمنا أن نأخذ كل الحوادث التي تجري حولنا في العمل بعين الجد والاهتمام، لأنها لا تجري جزافاً بل يحركها الله حسب قصدٍ ومشورة أزلية للخير المطلق بالنسبة لأولاده الذين سلموا أنفسهم لقيادته.

وعلى الإنسان المسيحي أن يعتبر كل تصرف يتصرفه إزاء العمل ومع الزملاء هو في الحقيقة يعبر عن إيمانه بالله وخضوعه لمشيئته وطاعته لتدبيره، حاسباً بكل ثقة أنه لا يمكن أن يحدث حادث، مهما كان صغيراً أو مؤلماً أو مجحفاً له، إلا وتكون يد الله قد صاغته لتوجيه حياته وإنذاره ورفع بصيرته وتوثيق علاقته بالله.

المشكلة الأولى

اختلاف الأمزجة والطبائع والتربية:

حينما يلتفت المسيحي حوله فيجد نفسه محاطاً بمجموعة أشخاص غير منسجمة معه في شيء فلا ينزعج، لأن في هذا أول درس يلزم أن يتلقنه وهو: كيف يحتفظ بكيانه وسط بيئة غير ملائمة؟ وهنا يكون الإنسان بين خطرين:

الخطر الأول المجاراة السهلة، والانزلاق مع التيار، والتلوُّن؛ وهذا معناه انهيار قدرة المحافظة على الكيان الذاتي، إما بسبب ضعف المقاومة أو بسبب إغراء مرح البيئة.

أما الخطر الثاني، فهو في المقاطعة والصدود أو الهروب من المواجهة والتماس العزلة، وهذا معناه الإخفاق في القدرة على التفاعل الحي مع البيئة.

والمطلوب أن يتحاشى الإنسان المسيحي هذين الخطرين بكل قدرته وكيانه، وأن يلتجيء إلى الله.

أما الخطر الأول: وهو المجاراة السهلة، فهذا لا يمكن تحاشيه إلا بالاستقلال الداخلي، نقول الاستقلال الداخلي وليس الاستقلال الخارجي، بمعنى أن يكون للإنسان وجهات نظر خاصة في الحياة والعمل والضحك يستمدها من روح الإنجيل ويتمسك بها بكل كيانه، فلا يزيد في مجاراته للزملاء المرحين عن مجرد ابتسامة رزينة أو كلمة محبة أو مديح نافع حتى لا يجرح نفسية الزملاء، ويظل هو كما هو في أعماقه يؤمن برزانة الحياة وجدية العمل. ولا يزيد في مجاراته للزملاء المستهترين بالعمل والوقت والمسئولية عن مجرد الإصغاء من حين لآخر لحديثهم، حتى لا يجرح نفوسهم و يظل هو كما هو في نشاطه وسرعته وإنجازه.

هذه المجاملات الرزينة إن ظلت هكذا على مدى السنين فهي كفيلة أن تحتفظ بشخصية الإنسان مُهابة محترمة حتى لدى أكثر الزملاء مشاكسة.

أما الخطر الثاني: وهو خطر المقاطعة والصدود والتهرُّب من مواجهة الزملاء والتماس العزلة عنهم ، فهو كفيل أن يستثيرهم إلى المطاردة والمماكسة والتهجُّم شأن كل غريزة حيوانية . هذا بالإضافة إلى أن التهرُّب من مواجهة المجتمع يُنشىء ضموراً في شخصية الإنسان ويضيِّع عليه مكاسب روحية نادرة .

على الإنسان المسيحي إذاً أن يبادر بإعلان رأيه حينما يدعو الداعي إلى ذلك دون أن يخشى وجوه الناس ، إنما يعلنه بمنتهى المحبة والتواضع لا كمن يعارض الزملاء في وجهة نظرهم الخاطئة وإنما كمن يقول رأياً فيه خير للجميع ، ويتناقش معهم بروح الوداعة محتملاً كل ثقل وتهجُّم في سبيل أن يرُد عليهم بكلام المحبة . ولكن عليه أن لا يمَل من إعلان رأي المحبة والحق في إصرار داخلي لا يتنازل عنه قط . فإذا لم تأخذ الجماعة برأيه فهي على كل حال لن تعتبره منعزلاً ، أما هو فيحتفظ بقدرته على إعلان الحق والمحبة ، وهذا كفيل أن يزيد من قدرة تفاعله مع المجتمع أكثر فأكثر .

ولكن على أي حال فليثق الإنسان المسيحي أن كل شذوذ في طبائع زملائه هو دعوة من الله له لقبول شيء جديد تجاهه .

فالزميل المستبيح بالألفاظ والمستهتَر بالقيم الأخلاقية ، هو دعوة سرية للازدياد في وقار المسيح والإنجيل .

والزميل المشاغب الكثير الصَخَب ، دعوة للاحتمال والصبر .

والزميل المتعاجب بذاته المترفع بشخصيته ، دعوة للا تضاع والبساطة والإشفاق .

والزميل المتشائم القليل الصبر والعادم الثقة بالناس ، دعوة لطول الأناة والرقة والبشاشة والبذل المخلص .

وهكذا يغدو جو العمل بيئة مقدسة يتناول فيها الإنسان المسيحي مواهب التغيير والتجدد ، ونِعَماً فائقة لا حصر لها ، إن هو التصق بالله وجعل صدره متسعاً للجميع وقلبه محباً لهم بالحق وروحه عاطفة مشفقة على المتعبين منهم .

وسر القدرة على ملاءمة الإنسان المسيحي للبيئات يستمده من استعداده للبذل واستهانته بالتضحية وقبوله للإهانة بفرح، بعكس الإنسان الاجتماعي الذي يكيِّف نفسه للمجتمع بالمجاراة من أجل كسب المواقف وربح الكرامات.

المشكلة الثانية

مشكلة تفاوت الكفاءات والمهارات والمواهب:

مفروض أن كل نعمة أو كفاءة ينالها الإنسان أفضل من الآخرين أنها تثير في أقرب النفوس إليه نوعاً من الغيرة والحسد والحقد أحياناً حتى ولو كانوا إخوته، فقصة يوسف وحسد إخوته الذي بلغ إلى درجة أن تآمروا عليه لقتله وأخيراً باعوه عبداً، قصة تكشف عوار البشرية بشدة، ويلزمنا أن نضعها نصب أعيننا حتى لا نستكثر غيرة الزملاء وحسدهم وحقدهم ومؤامرتهم. فإن كان بنو أمي وأبي يحسدونني ويبيعونني، فكم يكون الغرباء؟ والمعروف أن المسيحي حائز على نعمة داخلية تجعله مصدر حقد حتى من الشياطين... ولا بد أن يدفع ثمنها باهظاً يوماً من الأيام.

ولكن علينا أن نرى في غيرة الناس وحسدهم صورة إيجابية تدفعنا إلى العطاء والبذل واحتمال نقص الآخرين، لأن رحمة الله علينا ومؤازرته لنا تعادل خذلان الناس ونكرانهم مائة ضعف.

ولكن الصورة التعليمية التي يسوقها لنا الله من تقلب الزملاء وحقدهم وتعدياتهم تتركز بشدة في اختبار مدى تمسكنا بنعمة الله ومدى أمانتنا لها، الذي يظهر واضحاً في احتمال التعديات والخسارات بشكر.

و يوسف لما قبل أن يُباع عبداً وارتضى باحتمال نقمة إخوته، نال نعمة في عيني الله عوضته عن الخسارة الشيء الكثير جداً.

كما يلزم الإنسان المسيحي أن يربط دائماً النعمة أو العطية التي خصَّه الله بها و بين نتائجها المحتومة من حسد وحقد وتعديات، لأن هذا الارتباط كفيل أن يدخل الله في الوسط لأنه هو الذي وهب، فهو المسئول ضمناً عن نتائج مواهبه.

وهنا يصبح موقف الإنسان المسيحي من الحاسدين والحاقدين غاية في الدقة والخطورة، لأن أي شعور بالعداوة أو الحقد يتدافع في قلب الإنسان المسيحي من نحو زملائه المسيئين إليه، كفيل أن يلاشي استحقاق الإنسان المسيحي للنعمة أو العطية أو الموهبة التي خصه الله بها، لأن استحقاق الإنسان لنعمة الله رهن لاحتماله ما ينتج عنها وتسليمه الكلي لله ليتصرف في حياة من أنعم عليه.

أما إذا تصرف الإنسان المسيحي كما يتصرف غيره من الناس دون أن يحسب حساب مسئوليته عن النعمة والموهبة التي فيه، ودون أن يحسب حساب الله الذي هو سبب لهذه النعمة، فالله يتخلى عنه، وتصبح النعمة التي فيه حفنة تراب من المواهب الأرضية الزائلة. ومهما استعاد من حقوق وتغلب وانتصر وساد فهو يبقى أنقص من كافة الناس لأنه سيشعر دائماً أنه قد فقد مصدر كماله ونعمته: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل.» (٢ كو١٢: ٩)

إذاً، فالأحقاد التي يواجهها الإنسان المسيحي في ميدان عمله نتيجة لتفوقه في نوع من المواهب يكون قد خصه الله بها، هي في الواقع محك شديد لأمانته لله ولاستحقاقه لهذه المواهب، وهي بمثابة اختبار مستمر تجوزه النفس بتدبير الله لكي تتزكي في هذه الأمانة القليلة وهذه المواهب الصغيرة، استعداداً للأمانة العظمى والمواهب الفائقة.

وهذا الاحتكاك الذي تلازمه الأتعاب والمضايقات والخسارات، لو جازه الإنسان المسيحي بهدوء وصبر وشكر، فهو كفيل أن يمنح الإنسان سلاماً داخلياً وإحساساً بنصرة فائقة تجعله يسمو فوق زعازع الحياة كلها بثقة في الله لا تُحد، و يكون سلوكه هذا كفيلاً أن يرغم لا الزملاء الحاقدين فقط بل والشياطين أيضاً أن يعترفوا بالنعمة التي في هذا الإنسان ويكرموا إيمانه بالله.

المشكلة الثالثة

عدم الأمانة بين الزملاء:

عدم الأمانة وما يتبعها من سرقة وتزوير ورشوة وخيانات بالنوع المادي أو المعنوي أو السياسي، وما يترتب عن ذلك من أضرار جسيمة بالدولة أو بالعمل أو بالمواطنين، أمر مستبعد نهائياً على ضمير المسيحي ولا نستطيع أن نفترض حدوثه. ولكن يلزمنا أن نفرّق بين «عدم الأمانة» كما يفرضها علينا الضمير المسيحي من جهة الروحيات والسلوك الروحي حسب الإنجيل، و بين «عدم الأمانة» كما ينص عليها دستور العمل وتحددها قوانين المصلحة أو المؤسسة بوجه خاص وقوانين الدولة بوجه عام.

وبهذا الصدد علينا أن نعرف أن الأمانة في هذا العمل أو ذاك ليست شيئاً مستمداً من الإنجيل ولا هي متروكة لضمير كل إنسان ليقدرها حسب قياسه في الروح والنعمة؛ إنما تتحكم فيها لوائح العمل وأصوله وتعليماته وقوانينه، لذلك يلزم تدارسها بدقة والإلتزام بها في حدودها المعقولة.

كما أنه ليس للإنسان المسيحي أن يفرض سلطان ضميره فوق حدود القانون فيتشكك في سلوك زميل، أو يعطل مسير العمل ويضر بالمصلحة العامة، وهو ليس لديه إثبات مادي من القانون يسند هذا الشك. ليس معنى هذا أن نتعامى عن عدم أمانة الزملاء فنتورط معهم في عدم أمانتهم، ولكن علينا أن نتخذ كل احتياط قانوني حتى نتقي أية مسئولية تقع علينا، بل أن نلتزم نحن الأمانة المطلقة في حدود اختصاصنا دون أن نتتبع أمانات الغير طالما هي ليست تحت مسئوليتنا.

ولكن موقف الإنسان المسيحي من «عدم الأمانة» العامة في وسط الزملاء لا يقف عند الحد السلبي الذي فيه يتقي الإنسان المسئولية والضرر فقط؛ بل يتعدى ذلك إلى موقف إيجابي لا بد منه وهو تحمل مسئولية الأمانة وما يترتب عنها في مثل هذا الجو الذي

تسوده عدم الأمانة، لأن هنا تنشأ بالضرورة مفارقة واضحة كاشفة تكشف عن غير قصد كل تلاعب وعدم أمانة، ونتيجة ذلك أن يصبح وجود الإنسان المسيحي ــ مجرد وجوده ــ أمراً غير محتمل، وغير مرغوب فيه بالمرة، وفي الحال ستنشأ المقاومة الخفية التي قد تبلغ الوشاية أو الشكاية أو حتى التهديد العلني، وعلى الإنسان المسيحي أن يركب هذا الموقف الصعب ولا يتهرب من خطورته بل يثبت على أمانته حتى النهاية، لأن القضية تصبح قضية إيمان بالله وتسليم مطلق للعدل الإلهي.

هنا تظهر قيمة الإنسان المسيحي في العمل، بل هنا تظهر قيمة العمل في إعلان الإيمان المسيحي والشهادة له بالدموع والقلق والإهانة والخسارة والتشريد في أقصى بلاد الصعيد.

بهذا يتحول العمل إلى مجال حي خصب يستغله الإنسان المسيحي ليمارس نداء البذل والتضحية والفدية، ليس عن شخص معين، ولكن عن الطبيعة البشرية الساقطة التي يمثلها هذا الزميل الخائن وبالتالي كافة الخطاة.

هذه المعاناة الخطرة البليغة في أثرها ونتائجها لا يمكن أن تمر جزافاً أمام الله، فهي محسوبة جزءاً حياً فعالاً في خطة خلاص النفس وتأهيلها للشركة في ذبيحة المسيح عن العالم.

إذاً، فالعمل يبدو مجالاً لخلاص النفس ونموها وتأصلها في العلاقة بالله على أساس واقعي منظور، لو انتبهت النفس إليه.

أما الإلهام الذي يقدمه لك الإنجيل بصدد الزملاء الأردياء فهو اختيار الرب ليهوذا ليكون ضمن تلاميذه واحتماله لسرقته وخيانته ونقل أخباره، والمسيح راضٍ عن ذلك، والتلاميذ أيضاً، مع أنه كان في مقدورهم أن ينحُّوه عن زمالتهم بكل سهولة منذ البدء، ولكن لا التلاميذ تشكوا منه، ولا الرب حاول أن يتخلص منه، هذا لم يعمله الرب وهو لا يريدك أن تعمله لكي تحمل الصليب الذي حمله وتعبر خلفه.

معاملة الرؤساء:

أما من حيث واجبات الطاعة والخضوع للرؤساء الأمناء الشرفاء المستنيرين فهذا أمر مفروغ منه، ولكن الصعوبة تبدو قاسية جداً على النفس المسيحية حينما تواجه رؤساء غير أمناء غير شرفاء غير مستنيرين.

لذلك يلزمنا جداً منذ بداية حياتنا أن نضع أمام أعيننا أن المسيحي حتماً سيواجه في العالم نفس الظروف التي عبرها المسيح والتلاميذ وكافة الذين جاهدوا بالروح وكملوا في الإيمان طبقاً لما حدده الرب: «في العالم سيكون لكم ضيق» (يو١٦: ٣٣)، «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم» (يو١٥: ٢٠)، «لا تخافوا...» (مت ١٤: ٢٧)، «لا تهتموا...» (مت٦: ٢٥)، «أنا قد غلبت العالم» (يو١٦: ٣٣). ولكن الحقيقة أن أحرج ساعات الإيمان هي التي يقف فيها الإنسان أمام الرؤساء الظالمين الحاقدين غير المستنيرين سواء كانوا من طبقة الفريسيين الذين يصطادون بالكلمة، أو طبقة حنان وقيافا الملفقين للتهم وشهود الزور، أو طبقة هيرودس و بيلاطس القساة الخائفين على مراكزهم، أو طبقة نيرون ودقلديانوس المستبدين بحكم سلطانهم، أو طبقة الحاكم بأمر الله المجانين الذين ألقتهم مجريات الأمور على كراسي الحكم.

مثل هذه الساعات الحرجة التي يُدعى إليها الإنسان المسيحي تعتبر لدى الذين يطلبون ملكوت الله و بره من أخطر مراحل حياتهم لأن فيها يتقرر مصير أكاليلهم. فهي في الحقيقة ليست ساعات محسوبة ضمن دوسيه خدمة الموظف بتقاريرها السرية المجحفة الظالمة، ولا هي تحسب أيضاً ضمن ساعات نهار هذا العمر القصير؛ بل هي لحظات من الأبدية تنفتح على الإنسان لينال فيها ما لا يمكن أن يناله في مائة سنة جهاد وصلاة وصوم!

فلينتبه إذاً كل إنسان مسيحي لهذه المواقف الحرجة لأنها وإن كانت حسب الظاهر

أوقات حزن واضطراب وقلق إلا أنها حسب الله والإيمان والحياة الأبدية هي ساعة خلاص وزمان بركة، سواء قصرت أم طالت، يُحسب فيها بعد أن يكمل الإنسان آلامه ويوفي حقوق إيمانه دون أن يجزع من شدة القتال أو يرهب النضال ـ يُحسب مع الشهداء الصغار.

وعلى مدى التجربة التي يجوزها المسيحي وهو ينوء تحت ثقلها يتعلم يوماً فيوماً كيف يواجه الشدة بوجه مبتسم، وكيف يضبط قلبه في يد الله حتى لا يدق دقة واحدة خارجاً عن نغمة الإيمان، وكيف يسلم المستقبل لمن يستطيع أن يكشفه ويدبره، وكيف يحول الألم إلى شكر ثم إلى سرور. وأخيراً يكتشف الإنسان مقدار ما اكتسبه روحياً من هذه التجارب فيندهل حينما يصل إلى القرار الأخير: «لأنه قد وُهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألموا لأجله» (في ١: ٢٩). وكأنما لم يكن مستطاعاً أن يتقدم الإنسان في حياته الروحية بهذه القوة وهذه السرعة وهذا العمق إلا عن طريق الألم والمعاناة والمظالم المجحفة المثيرة للنفس والذهن. فلا يسع الإنسان إزاء هذه الحقيقة المدهشة إلا أن يبتسم ويبتسم دائماً و بالأخص كلما اشتد الظلم أو الإجحاف أو الألم: «احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة.» (يع ١: ٢)

- المسيحي الذي يطلب الحياة الأبدية و يشتاق إلى النمو في الروح والتقدم في الإيمان، عليه أن لا يجزع من الرؤساء الظالمين لأن هذا هو الباب الضيق الذي انفتح أمامه، فلا يفر منه ولا يحاول أن يغلقه بيديه أو بمكره أو بماله لأنه يكون كمن يقفل باب الحياة الأبدية. أو كمن يلقي سلاح الإيمان والنعمة بمجرد إعلان الحرب.

- الرؤساء الظالمون العتاة لا يستطيعون أن يسيئوا إليك! لا تخف، ولا ترتعب لئلا تسقط روحك فيك وتغرق من الوهم في لجة اليأس الكاذب. هم على العكس رسل موفدون من قبل الله ليكملوا إيمانك ويثبتوا رجاءك و يفكوا روحك من الأمان الكاذب الذي يربطك بالأرض، وهم جاءوا إليك في الميعاد المحدد من

الله لتنال على أيديهم إكليل الشهادة الصغيرة، هم مساعدون لك على الصلاة ووجههم الجافي وقلبهم القاسي ولسانهم الجارح أدوات تستخدمها النعمة لاستدرار دموعك، هم مرسلون ليذكروك بميعاد الحياة الأبدية وجاءوا يطالبونك بالثمن فادفعه مسروراً لئلا يُؤخذ إكليلك ويعطى لغيرك.

- هم رسل تنغيص لنفسك وعوامل لا تهدأ حتى تجعل مسرات الدنيا كلها سوداء مقرفة لروحك، أرسلهم الله في الميعاد الحسن حتى لا تغرق في ملذات الأرض وأفراحها وتنام في أرض الأعداء فيسرق الزمن نصيبك وتنسى إلهك وتهمل منزلك السمائي الذي أعده لك المسيح!
- أيها المسيحي الذي تطلب ملكوت الله و بره، لا تخشَ الرؤساء الظالمين أو المحابين ولا تحقد عليهم إذا أغفلوا حقك وابتلعوا نصيبك ورفضوا دعواك وافتروا على حقك وداسوا اسمك، لأنهم ليس من أنفسهم عملوا هذا ولا هو سلطانهم الذي أهّلهم أن يمتدوا ويؤذوا نفسك! الله هو الذي أعطاهم هذا السلطان من فوق من عنده كما أعطاه لبيلاطس الشرير الجبان. بيلاطس لم يكن مستطيعاً فقط أن يصدر حكماً على المسيح بالصليب لأنه حاكمٌ وحسب بل لأن السماء وافقت ولم تمانع! واختارته دون غيره لأنه ظالم وشرير فهو أهل لذلك... «لهذا أقمتُك»!
- و بولس الرسول لم يُجلد ولم يُسجن مرات عديدة حتى الموت، ولم تُقطع رأسه صدفة أو على سبيل الحظ العاثر أو لمجرد ظلم الرؤساء؛ ولكن لأن العناية الإلهية كانت تستخدم آلامه لتقوية روحه وإعلان إيمانه، وكانت تستزيدها وتجمعها كل يوم ذخراً للبشرية ليتقوى بها جيل آت وكان هو ــ إذ يعلم بهذا ــ يفتخر بآلامه حاسباً أنها قادرة أن تكمل ما نقص من شدائد المسيح!

- أيها المسيحي الذي يشاء أن يكون شريكاً للمسيح والرسل والقديسين افرح حينما ينفتح عليك هذا الباب، لأنها دعوة تؤهلك لامتلاك الصليب وهبة ثمينة سوف تربطك بذبيحة الفداء إلى الأبد.

معاملة الأصدقاء والأحبّاء والإخوة:

ليست الأخلاق الطيبة والسلوك الفاضل ورِقَّة المعاملة وأدب الحديث والفضائل الاجتماعية في مجموعها أهدافاً للطريق الضيق الذي دعا إليه المسيح، ولكن هذه كلها تأتي تباعاً دون عناء كثير خلف مَنْ ينكر نفسه ويسير حاملاً الصليب.

الهدف الأول والأخير للإنسان المسيحي في سلوكه ومعاملاته وعلاقاته بالأصدقاء والأحباء والإخوة، هو أن يجعل الحياة بينهم ومعهم مجالاً لإعلان الإيمان ونموه بواسطة تطبيق وصايا المسيح: بالمحبة الباذلة و بالتسامح والاحتمال و بالصبر والوداعة و بتذوق التضحيات والنمو في إنكار الذات لتقوية الروح.

ومجال الأصدقاء والأحباء والإخوة أهدأ ميدان يمكن أن تمارَس فيه وصايا المسيح وخاصة إنكار الذات.

وأخطر ما في هذا المجال هو تحوله إلى ميدان لإشباع العاطفة والاستمتاع بالمودة وتلذيذ النفس بالاحترامات وعبارات المحبة والمديح وتبادل الهدايا والضيافات والموائد: «إن أحببتم الذين يحبونكم فأي فضل لكم؟» (لو٦: ٣٢)

ومجال الصداقة ومحبة الإخوة مجال إلهي لتقوية الروح وتبادل خبرات الإيمان للتعزية: «لنتعزى بينكم بالإيمان الذي فينا جميعاً إيمانكم وإيماني» (رو١: ١٢). ليس هو مجالاً لتطبيب النفس وراحة الجسد والمزاج، ولكنه فرصة للاشتراك في أعمال البذل والخدمة والمعونة والمجاملة التي لا تطلب المكافأة أو العوض.

لذلك فمفهوم الصداقة والمحبة الأخوية بالمعنى الاجتماعي غيره تماماً في المعنى الروحي المسيحي. فالأول مجال استعراض الكفاءات والبطولات للشهرة والتسلية والمرح وتضخيم

الذات بكثرة المديح والإطراء والتكريم وتبادل المجاملات، أما الثاني فعكسه لأن المسيحي الصادق والمخلص للمسيح ووصاياه يرفض كل هذه الصفات والمعاني والأعمال، فهو يطلب و يسعى جاهداً لإنكار ذاته ولا يتعزى قط إلا بما ينجح في بذله وتقديمه للمسيح، فمجال الصداقة عنده مجال عطاء وتنازل وفدية: «ليس لأحد حبٌّ أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه.» (يو١٥: ١٣)

إلهام الإنجيل لنا بخصوص معاملة الأصدقاء والأحباء والإخوة عالٍ جداً، لأنه يرفع العلاقة التي تربطنا بهم إلى مستوى علاقة المسيح بتلاميذه: «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم.» (يو١٥: ١٢)

والمعروف أن المسيح أحب تلاميذه قبل أن يحبوه، فكان هو البادىء بالمحبة، وكانت محبته غير متأثرة بضعفاتهم ولا كانت مدفوعة قط بعوامل نفعية أو جسدية.

ومن هذه الصفة الهامة «صفة المبادرة بحب الإخوة» دون أن يكون فيهم دوافع تدفعنا لهذا الحب بل تكون الدوافع نابعة من قلوبنا نحن، يصير كافة الناس صالحين لمحبتنا.

وعندما نرفع مستوى حبنا إلى الدرجة التي نحس فيها أن حبنا أصبح نابعاً من أنفسنا وليس متعلقاً باستحقاق الآخرين أو عدم استحقاقهم، نصبح قادرين أن نحب بفيض غزير و بدون محاباة للوجوه!!

كذلك معروف أن المسيح أحب تلاميذه حباً هادفاً نحو غاية هامة، لولاها ما قام هذا الحب ولا كان ممكناً أن يموت المسيح من أجل هذا الحب. هذه الغاية أعلنها المسيح بوضوح كامل: «ليكونوا... واحداً فينا.» (يو١٧: ٢١)

أي أن هدف هذا الحب الإلهي العجيب هو الوصول إلى «وحدة معنا» التي تمت فعلاً بموت المسيح كعمل من أعمال المحبة!!

ولكن العجيب والمدهش أن الوحدة التي هي الهدف الذي قامت من أجله محبة المسيح لنا، هي هي نفس الأصل الذي منه كان يستمد حبه لنا. فالوحدة الكائنة بين المسيح والآب هي أصل محبته لنا وهي غاية محبته لنا. لذلك يقول المسيح: «كما أحبني الآب كذلك أحببتكم أنا.» (يو١٥: ٩)

لذلك يتبين لنا أن دوافع محبتنا للإخوة يلزم أيضاً أن نستمدها من وحدتنا بالمسيح حتى يكون حبنا لهم مثمراً لوحدة حقيقية. فإن كان حبنا للإخوة هو بدافع محبتنا ووحدتنا في المسيح كانت غاية هذه المحبة هي بلا شك وحدة كاملة في المسيح ومثمرة بأعمال البذل.

و بالنهاية تكون غاية الصداقة وحدة في المسيح تنمو وتثبت بالبذل.
فإذا لم تثمر الصداقة هذه الوحدة أو عجزت هذه الصداقة عن تحمل البذل والتضحية في سبيل هذه الوحدة، تكون هذه الصداقة غير مسيحية، و يكون السر في فشلها هو أنها لم تكن مستمدة من حبنا و وحدتنا في المسيح، وعلاجها يكون بالرجوع إلى عشرتنا الخاصة مع المسيح وتفتيش حياتنا الداخلية لتقوية روابط الحب مع المسيح أولاً.

ومعلوم أن الحياة إذا كانت غنية بمحبة المسيح ومتحدة فعلاً بمشيئته لا بد أن تنشىء حباً للآخرين و بالتالي تنشىء وحدة معهم.
أي أن كل إنسان مسيحي حقاً لا بد أن يكون محباً للآخرين ولا بد أن يثمر حبه «**وحدة**» معهم في المسيح.

ولكي تكون الصداقة ومحبة الإخوة مبنية على محبة مسيحية وذات قوة على تكوين وحدة حقيقية روحية، نحاول أن نضع أمام القارىء الصفات التي تميز المحبة القادرة على تكوين وحدة في المسيح، عن ما عداها من أنواع المحبة القاصرة عن بلوغ هذا الهدف الأساسي:

أولاً: أن يكون المسيحي هو البادىء بالحب دائماً لأن نشاط المحبة المسيحية قاهر سباق.

ثانياً: أن تظل المحبة مستمرة متأججة دون أن تتوقف ومهما قابلها من صعاب وعقبات فهي لا تهدأ ولا تعجز عن اكتشاف أسباب جديدة تدفعها على الاستمرار بالرغم من العقبات، حتى ولو بلغت هذه العقبات في اليوم سبع مرات سبعين مرة على حد قول المسيح.

ثالثاً: أنها تفترض مقدماً ضعف الطبيعة البشرية في الأصدقاء وتضع في حسابها نكسات الحماس والغيرة والإخلاص وحتى الأمانة. وهذا الافتراض لا يستلزم أي جهد لأنه مستمد من طبيعة المحبة الحارة الملتهبة التي أحبنا بها المسيح على أساس هذا الافتراض عينه.

رابعاً: أنها تكون دائماً مستعدة تلقائياً أن تشترك في نقائص الآخرين وتحمل نتائج ضعفاتهم. وهذا أيضاً لا يأتي بصعوبة أو تغصُّب، بل بالعكس يكون بتلهُّف وفرح؛ لأن طبيعة المحبة نفسها فيها هذا الاحتمال: «احملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تمموا ناموس المسيح.» (غل٦: ٢)

خامساً: أنها تكون عميقة في غناها وعطائها و بذلها ــ وليست سطحية بمثابة سد خانات ــ لأن مصدرها غني جداً وعميق، فلا تكتفي بإظهار المشاعر والألفاظ والابتسامات ولكنها مستعدة أن تعطي دائماً آخر ما عندها، وآخر ما عندها هو بذل النفس الذي يحتمل التعب والمرض والحرمان حتى الموت.

سادساً: أثقل ما عليها أن تكافأ، عوض بذلها، بشيء مادي أو ربح جسداني كمديح أو تكريم أو هدية أو خدمة تعويضية.

ولأن هذه المحبة إلهية في طبيعتها فهي تجزع جزعاً مرعباً أليماً من «الأجرة» أو على

حسب وصف بولس الرسول: «خير لي أن أموت من أن يعطل أحد فخري» (١كو٩: ١٥)، حيث فخر الإنسان هو بذله الحر المجاني كما أن فخر المسيح هو الصليب! وهذه المحبة تجزع من المكافأة حتى الروحية لأن إحساسها العميق هو أن « الضرورة موضوعة عليَّ.» (١كو٩: ١٦)

سابعاً: هذه المحبة لا تجيز لنفسها أن تسلب الآخرين أي مجد أو كفاءة أو موهبة؛ بل على العكس تحاول أن تستزيدها لهم بالقلب والضمير قبل أن يكون باللفظ. لذلك يستحيل على هذه المحبة الحسد أو الغيرة أو الانتقاص من أعمال الآخرين أو من صفاتهم الطيبة حتى ولو كانوا غير متفقين معاً في المبدأ أو الفكر: «هؤلاء عن تحزب ينادون بالمسيح لا عن إخلاص ظانين أنهم يضيفون إلى وُثُقي ضيقاً. وأولئك عن محبة عالمين أني موضوع لحماية الإنجيل. فماذا؟ غير أنه على كل وجه سواء كان بعلّة أم بحق ينادى بالمسيح بهذا أنا أفرح بل سأفرح أيضاً.» (في١: ١٦—١٨)

والسبب في أن هذه المحبة لا تحسد أبداً ولا تغار ولا تستنقص من الآخرين، هو أن طبيعة هذه المحبة الأصيلة هي التجميع وليس التفريق. فقوتها النابعة منها هي وحدة الآب بالابن، وغايتها وحدة الناس في المسيح، وعملها المستمر هو رفع الفوارق والحواجز والخصومات والتحزبات وكافة العوائق التي تقف ضد الوحدة في المسيح. كما في عُرف هذه المحبة أن أية نعمة أو موهبة تعطى لأي إنسان هي أصلاً لحساب الجماعة وهي لتقوية الوحدة وتعميق طبيعتها. لذلك لا تنظر إلى أية موهبة أنها شخصية بل هي لمجد الوحدة في المسيح. فالانتقاص من مواهب الآخرين هو انتقاص من الوحدة.

ثامناً: هذه المحبة لا تتعثر بسبب ما يصيبها من الآلام أو الخسارة أو الإهانات، وذلك يكون طبيعياً وليس اصطناعاً أو تغصباً أو تدريباً، لأن الآلام والإهانات والخسارات هي الشيء الوحيد الذي يزكي هذه المحبة و يلهبها لأن فيه يحس الإنسان المسيحي أنه يبذل والبذل غير الاختياري هو أثمن أنواع التضحيات لأنه بمثابة طلب أو أمر إلهي

خارج عن مشيئة الإنسان: « خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك» (تك ٢٢ : ٢). هنا مزيج من الحزن والفرح ومن الألم المبرح والسعادة التي بلا حدود. بذل النفس هو على هذا المستوى، فالإنسان تكون الدموع في عينيه وشدة الطعنة في جنبه تكاد تفقده وعيه وهو بالرغم من ذلك لا يزال يحب و يتلاطف و يقبّل اليد التي جرحته! وكلما اقترب الإنسان في آلامه من الصليب كلما اكتشف قوة الحب وسرت فيه كالنار! «اغفر لهم» !

تاسعاً: هذا الحب يبلغ أقصى قوته عندما ينفصل عن العواطف البشرية والمشجعات الأرضية وحتى المكافآت الروحية، وذلك حينما يرتفع الإنسان بحبه فوق روابط اللحم والدم وفوق ألفة الأمزجة والأفكار والطبائع، فلا يعود الإنسان يستمده إلا من فوق: « وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع.» (يو١٢ : ٣٢) □

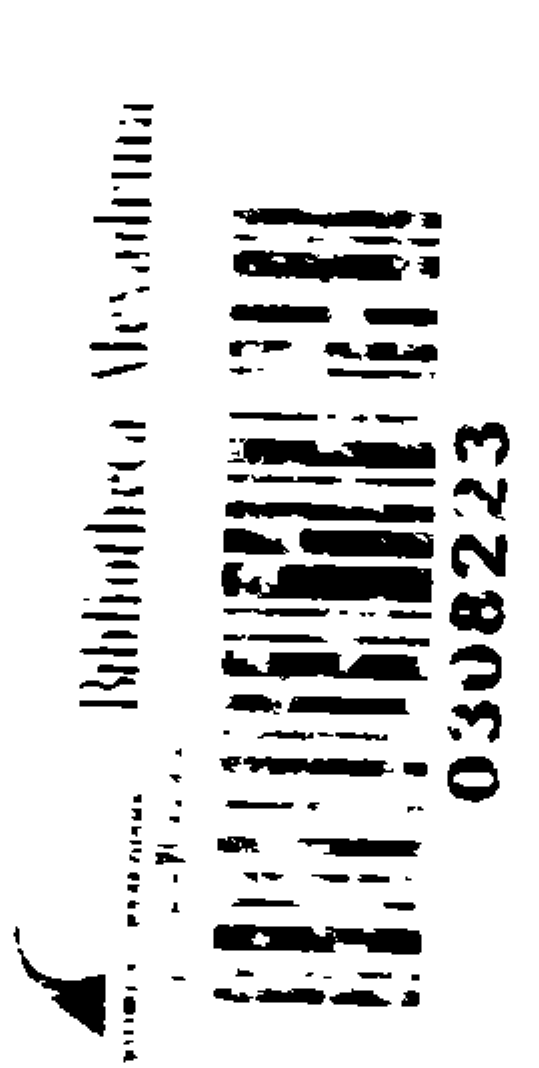


موقف المسيحي من المجتمع، حسب متطلبات العصر، هو بالحقيقة موقف دقيق.

فما هي حدود رسالة المسيحي تجاه المجتمع، سواء في علاقاته العامة التي تربط المسيحي كفرد وككنيسة مع العالم، أو في معاملاته الفردية؟

إن عناوين فصول الكتاب تكشف بوضوح عن مضمون هذه الرسالة: نظرة الكنيسة نحو علاقتها بالعالم ـ مشيئة الله وقصده المبارك تجاه العالم ـ مفهوم الأرثوذكسية لرسالة الكنيسة في العالم ـ مركز المسيح في المجتمع ـ ما هو عمل المسيحي داخل المجتمع؟ ـ تأمين الكنيسة ضد الذوبان في المجتمع...

ثم ... معاملة الخدم ـ معاملة الزملاء ـ معاملة الرؤساء ـ معاملة الأصدقاء والأحبّاء والإخوة...



الثمن جنيهان